أفاعي الرفاعي

أفاعي الرفاعي

رواية

حسام الشحات

تدمك: ٩٧٨-٩٧٧-٦٧٩٨-٠٩-٠

رقم الإيداع: ٢٠٢٠/٢٢٧٢

الفؤاد للنشر التوزيع

برج سانت فاتيما. أمام جنينة مول. مدينة نصر

Alfouad_publishing@hotmail.com

Facebook.com/fouadpublishing

غلاف: د. بولا وجيه

تنسيق داخلي: د. بولا وجيه

© جميع الحقوق محفوظة

هذا الكتاب يحمل رأي ورؤية الكاتب وحده،
ولا يمثل الدار أو أي من العاملين بها.

أفاعي الرفاعي

حسام الشحات

الفؤاد للنشر والتوزيع

إهداء إلى زوجتي الحبيبة

وإلى أولادي؛ محمود ومصطفى

أهدي هذه الرواية

حسام الشحات

الزمن المستدير..

قال وهو ينظر مباشرةً في عينيّ بطريقته التي تخترق كل خلية مني:

- أنت!

وذهب في غيبته الصافية مع الملكوت، كيف؟ محاولة المراجعة لا تجدي في تلك الأوقات، أسئلتي غبية وإجاباته ملغزة! مرتعداً أخرج من داره شديدة التواضع الفريدة المتلألئة وحدها وسط الحقول التي يغطيها الهشيم الأسود المتفتت! والشمس تلملم بوهنٍ آخر خصلاتها المذهبة، أجوس بين دور القرية الموحشة، شوارع ضيقة وحواري متعرجة ترسم مرتفعات ومنخفضات، مبانٍ أقسمت روح بنائيها أن تجمع الخلق- ناسها وحيواناتها وحشراتها- في سجنها الكبير ولو بقوة العشوائية التامة، أودِّع مكسوراً آخر شعاع، ماذا يقصد شيخي الليثي؟ أيقصد عجزي؟ أم تشي كلماته بتورطي؟ أتذكر بدايات القصة المشرقة ونهاياتها المفجعة؛ تركت الساحة الفسيحة المواجهة للطاحونة خلفي ومضيت أهذي، تزيد رعشتي رغم ملابسي الثقيلة، أهو شتاء مبكر في خريف سبتمبر أم هي برودة قلبي القاسي؟ آهٍ من التفاصيل؛ لا يكمن فيها شيطان بل شياطين! أمي، العنقاء، أبي، مصطفى، العهد، الرفاعي، عادل، نادية، الكفكفية، تغيير الجلد، أغسطس، الفحيح

والكشيش، الطريشة، العصَّار، بيت الشامية، الذئاب، الأسرار، الأوراد، أمل، حبشي، عبودة، والبرهامية!

ألم يكفهم قرنان من الزمان؟ جموع تحدق في فراغ المجهول واجمة كالحة الوجوه، بعضهم يلقي التحية وبعضهم يجلدني بنظرات اللوم القاسية، ولكنني لا أرى أحداً ولا أسمع ولا أرد! وحده سمعته يهتف بي مبتهجاً وكأنه لم يعرف مما حدث شيئاً؛ إسماعيل القهوجي:

- مساء الفل يا دكتور، أشير بتحية معتادة واهنة من يدي اليمنى وأواصل طريقي- انتهى الأمر؛ لن أعطيه شيئاً ولن آخذ منه على أي حال- صداع يدمر رأسي؛ لماذا يفكر البشر؟ أيستلذون بالعذاب! أتجاوز الترعة الآسنة عبر الجسر الخشبي المتهالك، لم أصل بعد إلى مبتغاي، الرجل النوراني لا يكذب أبداً، الأرض سوداء والجو ما زال خانقاً رغم مرور شهر، أعبر المستشفى المجدد ثم معمل التحاليل وأبتسم في مرارة المهزوم العاجز، أَصِل دارنا محترقة الجدران، أدير مفتاح البوابة الحديدية، أدفعها فتبكي بصرير صارخ! أتجاوز الشهود؛ أطلال أشجار المانجو والأريكة، أدخل لأرتمي على أول مقعد، ماذا يقصد؟ لماذا يزيد حيرتي؟ أيعرف ما جرى؟ ومتى كان لا يعرف؟! ثم تذكرت أنه لا ينطق في يومه إلا كلمات تكاد تعدها على أصابع كفيك، يستشهد دوماً بالآية والحديث؛ الآية (إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم)

هل حقاً يعيد التاريخ نفسه؟ تلوح ابتسامة واهية سرعان ما توأَد؛ أما الحديث فأتذكر منه عبارة: استدار الزمن كهيئته، أغرق في غيبوبتي الكابوسية.

توقظني سماح:

- علي، حبيبي، استيقظ، أرد مندهشاً:

- كم الساعة؟ تقول:

- أذّن الظهر، مالك يا أخي؟ أصرخ في وجهها:

- ألا تعرفين؟ تمسح عرقي وتقول:

- هوِّن عليك يا علي، إنها الأقدار، سلِّم أمرك لله، يستفزني كلامها المُعاد فأبعد يدها عن جبيني:

- لماذا جئتِ؟ عودي إلى بيتك وأولادك، تمسح دموعها وتقول:

- ممدوح أخذ شيماء وأحمد إلى والدته، أنا هنا منذ الصباح، ما هذا؟ العرق يغرقك، هل أنت مريض؟ رسمَت ابتسامةً مصطنعة لتغير مجرى الحوار:

- قم وانظر كيف رتبت كل شيء ونظفت لك البيت، كيف تعيش في هذه المزبلة؟

تحاول التخفيف عني ولكن هيهات، كيف لمن عرف نصف الحقيقة أن يتوقف قبل أن تكتمل أو يهلك دونها؟ تزيح الستائر وتفتح النافذة؛ يئن الشيش الخشبي وهي تصارعه بإصرار فيدخل النور، تبتسم:

- معقول! لم تفتحه منذ كنتُ هنا آخر مرة؟ فقلت غير مبالٍ:

- نعم؛ منذ متى.. أقصد منذ وفاة عادل، وهل هناك فرق؟ تبتسم في حنان:

- كيف؟ هل النور كالظلام، الشمس تجلب الدفء وتطرد المرض، والهواء يرد الروح وينعش ال.. قاطعتها بحركة من يدي:

- لا فرق! أرجوكِ اذهبي إلى زوجك وأولادك، تلومني نظرتها المشفقة:

- لن أذهب قبل أن تأكل ما طهوته لك بيديّ، أتعب وأطبخ من الصباح وتريدني أن أمضي دون أن أطمئن عليك، لونك أصفر، أين علي صاحب الابتسامة الدائمة والوجه البشوش؟ ابتسمت ساخراً:

- ابحثي عنه بعيداً

لا تكف عن المحاولة، تحضر أطباقاً وتضعها أمامي، أهتف بها:

- خذي الطعام واذهبي إلى حماتك، أولادك أولى من أكياس القمامة، تنفجر ببكاء مرير ثم تعود تتوسل:

- يا أخي بالله عليك، أرجوك تذوّق ولو شيئاً يسيراً، أقول لك، تعال معي، ممدوح يقترح أن تقيم عندنا بضعة أسابيع، نسي ما فعلت وسامحك، ابتسمتُ ثانيةً:

- فيه الخير، يدعوني إلى الشقة المستأجرة بعد أن احترق بيتكم الجديد! وهل أبيت فوقكم مثلاً؟ سماح، اذهبي ولا تشغلي بالك

- والله ممدوح يحبك، ترك العمل مع عمي استجابةً لنصيحتك وقال: فليكن ما يكون!

- ربنا يكرمه، لا تقلقي، أيام وسأعود أفضل مما كنت

- أنت هكذا منذ أشهر، خلاص، سأخبره؛ نأتي نحن ونقيم معك في البيت الواسع هنا ولو أياماً، أريد الاطمئنان عليك، تأخذني نوبة السُّعال فيحمر وجهي وتذهب لتحضر بخّاخ الحساسية:

- لابد أن نكون معك، من سيناولك الدواء؟ ضحكتُ وسط آلامي وأنفاسي المتقطعة:

- سأكمل.. كلامك.. لماذا.. لا.. تتزوج؟ جربت.. حظي.. سابقاً.. لم.. أعد.. أصلح.. لشيء.. أصبحت.. مريضاً.. هزيلاً.. مهدوداً، ثم تجهَّمتُ:

- ارحلي يا سماح وخذي الطعام، حين يعود علي سآتي به إليكم، تبكي، تقسم عليّ أن أستريح فوق السرير، تحاول من جديد:

- فاذهب لتقيم مع عزة؛ أعرف أنك تحب زوجها أكثر من ممدوح، فابتسمتُ:

- عصام يحتضر، والشقة التي استأجروها بعد اغتصاب أملاكه تُذكِّرني بما جرى ولن أحتمل البقاء فيها.

تغطيني، تترك قدور المحشي والبطة، تضع أمامي كوب شاي بالنعناع، أسائل نفسي قبلها: متى اكتسبتُ كل هذه القسوة؟ أطرق في خجل قليل

الحيلة، تقبل وجنتي وجبيني وتمطرني بدعواتها التي تذكرني من بعيد بدعوات أمي، تفلت خيالاتي المريضة لأسأل نفسي: هل حقاً تحبني؟ اخرس يا مجنون، طبعاً، إنها أختك شقيقتك! صحيح؛ لكنه زمن الزيف، أشير إليها لتغلق النافذة؛ يزعجني النور، أتذكر آخر زياراتها فأهتف:

- لا تضعي الشيح عند عتبة الباب، تندهش:

- لماذا؟ يمنع الحيات والسحالي من الدخول

- لا أحب رائحته، اسمعي الكلام.

تمضي مواصلةً بكاءها، أذهب في غيبوبتي المتكررة، تطاردني كوابيس نادية وعادل والأفاعي الزاحفة تلتهم كل شيء، أستيقظ مع غروب جديد وأجد البيت مرتباً نظيفاً، أتعجب ثم أعود لأتساءل:

- هل جاءت سماح هنا حقاً؟

◉ ◉ ◉

مصطفى..

أيام وليالٍ ثقيلة تمر وأنا على تلك الحال، لا أقوم إلا لشربة ماء أو لقضاء حاجة؛ أحلام مزعجة تهدأ لتسلمني إلى كوابيس مفزعة، وارأساه! الظلام مخيم دوماً؛ في الليل سواد وفي النهار نوافذ مغلقة خلف أستار ثقيلة، يدق جرس الهاتف فلا أجيب ويصيح أحدهم باسمي من الشارع فلا أقوم؛ أهو الوهن أم فقدان الرغبة في فعل أي شيء؟ أهي رؤى صادقة أم أضغاث أحلام شيطانية؟ بعضها أراه منطبقاً على ماضٍ تلوح مع ذكرياته ابتسامات باهتة سرعان ما تنهزم أمام جحافل الأحزان، تنساب بواكير ذكرياتي مع الحبيب؛ مصطفى ابن خالي عبد العزيز الأمشاطي، أرانا مع أصدقائنا نجري في الحقول حين صاح أسرعنا (قيِّدهُ يا رفاعي!!!!) عرفنا جميعاً- عدا مصطفى بالطبع! أن زميلنا قد رآه فتوقفنا عن الجري! وتعجبنا عندما سأل مصطفى:

- رفاعي؟ من هو الرفاعي وماذا يقيّد؟ وقفنا جميعاً فجأةً نلهث ونراقب الحشائش في حذر فهمست له:

- انتظر وسأخبرك فيما بعد! مقترناً بالرهبة أحسست بنشوة ونوع من الانتصار أن يعرف ريفي مثلي سراً خطيراً لا يعرفه ابن خالي الذي يكبرني بعامين ويعيش في المدينة! ما زال مصطفى يتحرك فقلت:

- خذ حذرك فقد رأى ثعباناً! ظل وحده يتمشى بينما وقفنا ساكنين حين هتف حسن ثانيةً:

- خلاص؛ هرب، بركاتك يا رفاعي!

قلت لمصطفى:

- تعال نروَّح.. يبدو أن أبناء البندر مثله لا يعرفون شيئاً عن الثعابين ولا الرفاعية! في طريق عودتنا سألني:

- ما الأمر، فهّمني؟

- لا شيء، كما أخبرتك؛ رأى ثعباناً

- وإذا رأى أحدكم ثعباناً أيقول (قيدهُ يا رفاعي)؟ ومن هو الرفاعي الذي يقيد الحيّات ذاك؟

- نعم، الرفاعية هم من يقيدون الثعابين والحيّات! مضى يجادل:

- وكيف رأى هو ثعباناً ولم أرَه؟ هل رأيتَه أنت؟

- لا ولكنه بكل تأكيد رآه، ابتسمَ بسخرية:

- إذن فقط كان يخيفكم ولم يرَ شيئاً!

في طريقنا إلى البيت تهب نسمة رقيقة فيقول:

- عجيب موقع قريتكم وجوها

- وما العجيب؛ مثل كل قرى مصر؛ ترعة ومصرف؛ حقول خضراء وبيوت متراصة!

- ثم فجأة تجد صحراء كئيبة قاحلة
- غرباً صحيح؛ حيث تلّة الذئاب!
- وشرقاً؟
- بيتنا ثم بيت عائلة الشامي، ثم بيوت خربة مهجورة، ثم المقابر
- ثم؟
- صحراء أخرى! ضحك واندهشتُ حين قال:
- إذن فداركم تقع على الحد الفاصل بين الحياة والموت، أو هي في الحقيقة حياة تتوسط مَوتين! لكن جو بلدكم- ما شاء الله- معتدل طوال العام، وهواؤها يرد الروح، انتابني صمت تفكيرٍ في عبارته الأولى ثم قلت:
- دعك من هذا، ألا تعرف شيئاً- بالفعل- عن الرفاعية؟ فضحك:
- ولا عن الأفاعي! قل لي أنت ما القصة؟ أحسست بنشوة الفخر مجدداً:
- منذ زمن بعيد كانت الثعابين تنتشر في القرية وتؤذي أجدادنا وأطفالهم ودواجنهم
- لكن لها دوراً لا يُنكر في توازن البيئة!
- نعم كان لها فضل في التخلص من الفئران والجرذان لكنها كانت أيضاً تزعج أجدادنا وتسرق دواجنهم مما دفعهم للاستعانة بالرفاعية للتخلص من شرورهم، فسأل:
- ومن هم الرفاعية؟

- مجموعة من المتصوفة يستطيعون اكتشاف الثعابين وترويضها باستعمال تعازيم وأدعية خاصة، فقال بجدية:

- وبعد أن يكتشفوا مكانها، أيقتلونها؟

- بل يضعونها في أجوِلة سميكة ويتخلصون منها بعد ذلك في الصحراء وفق عهد متبادل بحيث لا يؤذونها ولا تؤذيهم، فضحك بشدة:

- ليعودوا من جديد! وجَمت للمفارقة وأكملتُ كلامي:

- بعد محاولات طويلة توصل الرفاعية إلى اتفاق مع الثعابين بحيث يترك أهل القرية البيوت المهجورة شرق القرية للثعابين. بدا الكلام بالنسبة لي- قبله- غير منطقي، فابتسم، لكني أكملت:

- يضع أهل القرية للأفاعي صباح كل يوم كمية محددة من البيض والكتاكيت أمام دورهم، وتقوم الثعابين في المقابل بحماية الحقول من الجرذان والقوارض الضارة، فهتف متعجباً:

- يا سلام! فقلت بلهجة توكيد حذرة:

- نعم، ضحك فاهتز جسده بشدة:

- أكمل يا مولانا، فقلت بتردد:

- على ألّا تدخل الثعابين بيوت أهل القرية ولا يدخل أحد من القرية أي بيت من بيوت الأفاعي، وعلى من خالف الاتفاق أن يتحمل الأذى من الطرف الآخر، نظر وحرك رأسه متشككاً كمن يفيق من حلم:

- اللهم اجعله خيراً!

- والله أخبرتك بالحقيقة، واسأل عمَّتك

- تريد مني أن أصدق أن الرفاعية يتكلمون مع الثعابين ويعقدون اتفاقات مع الأفاعي وتلتزم الحيات بعهودها معهم! ثم نظر بجدية وأشار بأصابع يده إلى رأسه وأدارها وكأنه يقصد: هذا جنون!

- أهلنا يلتزمون بالعهود، أما الثعابين فبين حين وآخر ينقضونها، ذات مرّة اعتدوا على دوّار العمدة وسرقوا كل البيض ومزقوا حَمَلاً مولوداً، فقال مضخماً صوته وهو يفرك عينيه:

- وماذا فعل "حضرة العمدة"؟

- لجأ إلى الرفاعية فأرسلوا مندوباً منهم إلى الأفاعي وتفاهم معهم، فقال متعجباً:

- بِلُغتهم؟

- لا أعلم، قلت لك لهم تعازيم مخصوصة، وكان سليمان عليه السلام يعرف لغة الحيوانات والطيور

- كان نبياً، ولكن أكمِل

- أخبروه أن عددهم يزداد ويحتاجون إلى طعام، والإتاوة السابقة لم تعد تكفي فعاد وعرض الأمر على العمدة وكبار البلد- ومنهم أبي- فقرروا أن يستجيبوا لمطالب سيد الأفاعي، فقال:

- لبيتم طلبات الثعابين؟

- طبعاً ونزيد لهم الطعام كل سنة، وماذا يمكن أن نفعل غير ذلك؟ عاد من جديد يفكر ثم قال:

- مستحيل، أنت تهزأ بي! ولكنها حكاية مسلية!

وصلنا البيت لتستقبلنا أمي بكرم يزيد دوماً مع وجود مصطفى فبادرتُه:

- سلها عما تريد، التفتَت فقلت لها:

- لا يصدق حكاية الرفاعية والأفاعي، أكّدَت كلامي وهو متعجب ثم قالت وأبي يفتح باب الغرفة:

- لو كان جدي الأمشاطي حياً لما أخذوا شيئاً، ضحك أبي وقال:

- ربما لو كان حياً لسلمهم البلد بما فيها دون مقابل! اندهش مصطفى فقالت أمي:

- تعرف عمك صالح؛ لا يكف عن الضحك، فرد أبي:

- راحت تلك الأيام، جاء جدك مع جند محمد علي قبل مائتي سنة وأهلته مهارته أن يصبح الأمشاطي الأكبر في مصانع الغزل، حرك مصطفى رأسه من أعلى إلى أسفل مؤكداً أنه يعرف القصة، لكني لم أكن أعرف فسألت:

- وما معنى (الأمشاطي)؟ فقالت أمي:

- الذي يتعهد أمشاط الغزل في مصانع النسيج ويتولى صيانتها وإصلاحها، فتساءلتُ:

- وكان في مصر مصانع للغزل قبل مائتي سنة؟!

- نعم يا علي، صنع محمد علي باشا كل ما يحتاجه جيش قوي، حفر الترع وأقام القناطر ووسع الأراضي الزراعية وبدأ نهضة صناعية كبرى، ولكن الغرب والشرق تآمروا عليه وأفشلوه، وظل جدك الأمشاطي في بيته الكبير بحي السيدة زينب، فسألتُ مندهشاً:

- بيت السيدة القائم حتى الآن؟ فضحك مصطفى:

- تهدّم البيت وأُعيد بناؤه مرتين وآلت الملكية إلى أبي بالوراثة، فضحكت أمي:

- أعطانا- أخواته البنات- حقنا عملات ذهبية وحُليّ ليظل البيت بدون تقسيم، ضحك أبي:

- لكن الأمشاطي الكبير كان ملاكاً بجناحين، فقالت أمي:

- وبعدها معك؟ كان بشراً ولكنه كان بلا شك عبقرياً وشجاعاً! فقال ضاحكاً:

- طبعاً، وهل قلت غير ذلك؟

أتقلب في فراشي في غاية الإرهاق، تلفني الأحزان فأتخلص من أغطيتي الثقيلة، أعود لقطرات من الماء وقطعة لحم جافة، دموعي تسيل فلا أعرف هل من حنين الذكريات أم من شدة الألم، أسقط من جديد ثم أضحك بجنون وأنا أتذكر إحدى نكات أبي التي أطلقها بعد زواجه الجديد:

أعرف رجلاً قابله أحدهم فسأله: كيف حال أبيك؟ فرد: حيٌّ يُرزق فسأله: وكيف حال امرأتك؟ فقال: حيةٌ تسعى!

يضحك الجميع! وأعود إلى آلامي.

◉ ◉ ◉

زيونية..

كيف أوقعته تلك الحرباء في فخها؟ تأتي الكوابيس دون ترتيب زمني؛ تُقلِّبُك على هواها لا كما تريد أنت! كيف مضى عمري بعدك يا أماه الغالية حقاً؛ أتذكر اسمها الجميل فأبتسم في مرارة؛ غالية الأمشاطي، لم تغيبي عني أبداً، أكان موتاً أم إغفاءة تعودين بعدها إلى نشاطك وحيويتك، المقارنات دوماً مفزعة؛ أكان يعرفها قبل وفاة أمي؟

اسمها زينة، تبدو ملامحها مألوفة؛ يدللها فيناديها (زَيُّونية) تصغرني سناً، تتمايل في مشيتها ولا تخجل من ضحكتها الرنانة وصوتها المجلجل وأغانيها التافهة، تتبختر في الدار بمساحيقها وجلبابها المحزَّق وكثيراً ما تخرج من غرفة نومها بقميصها القصير الشفاف! يقولون إنها قريبة العمدة لكن أحداً لا يعرف أصل بلدها! ليلة الزفاف لم يأت معها إلا بعض صاحباتها وراقصات (غوازي) في غاية الخلاعة وفرقة ماجنة من البندر مع شِبه رجل قالت إنه أخوها ولم أره بعد ذلك! في حضور العمدة تدوي طلقات رصاص مزعجة من بندقية عمي حجازي شيخ الغفر وبعض رجاله، أين ومتى رآها أبي وممن طلب أن يتزوجها؟ يجيب أبي عن أسئلتي باقتضاب غير مريح: نصيب!

كان وحده جالساً على المصطبة تحت ظل أشجار المانجو، استجمعت شجاعتي:

- أبي، أريد الانتقال إلى الجيزة، فزمجر كعادته:

- لماذا؟

- تعلم أنني لا أحب الزراعة ومصطفى يلح عليّ للعمل معه في صيدليته

- والجامعة؟ اصبر معنا هذه السنة الأخيرة

- سأعمل معه شهور الصيف ووقت الدراسة أعود لكليتي، فقال بحنان غريب على مسامعي:

- فهمتك، الوضع لا يعجبك، لن أضغط عليك وإن كنت محتاجاً لك بجانبي، اذهب على بركة الله.

أعود أتقلب في فراشي وأفتح عينيَّ لتفاجئني نقاط دم شديدة الدقة! أعيد النظر واهناً: حقيقة أم بقايا كابوس؟ ترسم النقاط ملامح وجهي على الوسادة، أقوم لأكتشف أنها تجسد صورة جسمي العاري كله فوق الملاءة! أتعثر بشيء على أرضية الغرفة يشبه إهاب الجلد أو المشمَّع بلون قمحي! أنظر إلى المرآة الكالحة وأقترب فأجد جسدي كله بلون جديد فاتح! ونقاط الدم الدقيقة تملؤه! ما هذا؟ أتسببت العزلة في جنوني؟ أقنعت نفسي: هذا جزء من أوهامي المتكررة!

يقول أبي إن زيونية مسكينة عانت من طفولة شديدة البؤس؛ تعذيب وحرق واغتصاب! خدمت في بيوت الأجانب المنتشرين بالجيزة ولكنهم كانوا يطردونها بعد أسابيع قليلة! ونسي أبي أو تناسى أن يذكر لماذا كانوا يعذبونها ويطردونها من كل مكان عملت أو سكنت فيه! شهور وتأتي البشارة بقرب مولد صبي سيدخلني مجبراً لخدمة الجيش! لم أتقبل فكرة أن أبي أحبها مثلاً ليتزوجها بعد وفاة أمي بسنة واحدة! وكيف يحبها ثم يؤلف وينشر تلك النكتة؟ تبرجها فاقع يصيبني بالغثيان، ومرآها يزعجني ويثير جنوني! عينان جاحظتان كأنما رُكِّبتا في جانبي الوجه المبطط، أسنان بارزة داخل فم مستقيم بارز دوماً إلى الأمام وأنف غائر أفطس وآذان صغيرة تكاد لا تُرى! يراها الناس بيضاء وأراها شديدة الزُّرقة بل السواد القبيح!

تهاتفني عزة من غربتها، أحكي لها فتقول:

- تبالغ مثل عصام، الصور التي وصلتني تقول أن شكلها أجمل مما تصف، طبيعي أن تتضايق من زوجة أبيك

- وماذا قال عصام؟

- اهتز ووقعت الصورة من يده على الأرض وسألني: هل هذه زوجة أبيك الجديدة؟ فقلت له: نعم، ماذا بك؟ فقال: لا شيء، أصلها.. ربنا يتمم له على خير!

أسألها عن أحوالها وزوجها في الخليج فتجيب:

- أحياء والسلام!

- وهل ستأتون في الأجازة أم تظلون عندكم كآخر عامين؟

- ادعُ لنا، عصام والله لا علاقة له بوفاة مريضة في المستشفى لكنه رئيس قسم التخدير، وممنوع من السفر حتى تنتهي التحقيقات ويُحكم في القضية!

أتعجب:

- والأولاد؟ فتكمل:

- حماس وجهاد يحبون هنا أكثر من مصر؛ أصدقاؤهم والمسبح والنادي!

أما سماح فتلتمس لأبيها الأعذار:

- لا تظلمه، أكيد وجد فيها ميزات لا نراها، كيف يعيش وحيداً؟ دعه وشأنه ربنا يهديك!

هزة عصام جعلتني أتذكر متى رأيتها من قبل، كنا في نشوة الفرح المتكرر للعام الرابع بانتصارنا على العدو الغاصب حين جاءت تبكي وترتعد في ذلة وتشكو لأمي مصائب الدهر، قابلتها أمي بحنانها المعهود مع الجميع ثم أحضرت لها ملابس نظيفة وحذاءً ونقدتها مبلغاً من المال:

- اذهبي إلى بيت عائلة الشامي؛ يحتاجون من يساعدهم- ولم تقل يخدمهم!

وعندما سألتها عزة: لماذا أرسلتِها لبيت الشامي ولم تطلبي منها العمل هنا؟

قالت أمي: لا أحتاج إليها، وأم حبشي تقوم بالواجب!

تختفي الحقيبة السوداء التي تحمل عملات أمي وحُليّهَا الذهبية المرصعة بفصوص الفيروز؛ إرثها من عائلة الأمشاطي العريقة! لا يتهم أبي أحداً ويخرس صوتي حين أريد أن أوجه الاتهام المنطقي الوحيد: هي لا غيرها بالتأكيد! اتقِّ شر من أحسنتَ إليه! تحقيقات نظامية تنتهي كالعادة بالحفظ: احمدوا ربكم أن اللصوص وجدوا البيت خاوياً؛ ربما قتلوا أحدكم من أجل تلك الثروة! يصمت أبي أمام نظراتي المتعجبة صمتاً مريباً! ألجأ إلى شيخي علاء الرفاعي؛ يوصيني ببعض الأوراد ثم يقول بلهجة حاسمة:

- اتل تلك الأذكار ثم اقرأ هذه الآية وكررها حتى تنام (إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) وسينكشف لك كل شيء، لا تتوقف عن التلاوة حتى تسقط نائماً! كالمخدَّر أفعل ما يقول دون تردد، مائة مرة استغفار، سبع مرات صلاة على النبي بالصيغة الإبراهيمية، دعوات في أوراق لا أفهم أغلب كلماتها، ثم الآية أكررها حتى أسقط! أغفو فلا أرى إلا الأفاعي تحوم حول قبر أمي وتتوالى اللدغات! من سرق كنزنا؟ أراجعه في اليوم التالي فيقول بيقين:

- استمر كل ليلة وسترى!

أطمئن على أبي عبر الهاتف لكنه تلك المرة كان مختلفاً؛ بدا صوته القوي طوال عمره واهناً، أسأله:

- مال صوتك؟ فيرد:

- مشاكل يا ولدي؛ الأرض والزراعة، ثم همس فجأة:

- الحية!! قلت متعجباً من اعترافه لأول مرة:

- زوجتك؟ فهمس:

- ومن غيرها؟ تغير صوته ثانيةً:

- وأخبار صحتك طمئنّي عليك!

- الحمد لله؛ فلتُطلِّقها

- إن شاء الله عن قريب، ثم ضحك:

- حيٌّ يُرزق!!!

لم أنم تلك الليلة ولم أكن مستيقظاً، أخذتني تلك الغيبوبة التي تنتابني بين حين وآخر؛ أغيب عن الوعي ثم أفيق بعد ساعات منهكاً وكأنني عدوت آلاف الأميال، أتذكر صديقيَّ في أول عام ابتدائي؛ عن يميني يجلس صغير الجسم دائم الحديث حول الدين؛ أحمد ابن الشيخ أحمد الرفاعي كبير الرفاعية- القطب- في قريتنا كفر حكيم، وعن يساري يجلس الرياضي الأنيق عادل طلبة المشاغب دوماً وأكثرنا حركةً ونشاطاً، أتذكر انبهاري الأول بوالد زميلي الرفاعي! زياراتي الساذجة إلى دارهم حين شببنا قليلاً، بدايات حواري معه حول الأفاعي: أتكلمونهم فيفهمون؟ يضحك: ونكلم الذئاب أيضاً، صوته القوي المؤثر الذي يقشعر له جسدي الضئيل، المقدمات الصادقة التي تؤدي إلى نتائج غير منطقية! وهل الحقيقة دوماً منطقية؟! يضع

يمينه على رأسي ثم يهمس بكلمات لا أتبينها: أرقيك، أدهشني يوم وقف خطيباً على المنبر ثم بدأ يتحدث عن بعض معجزات النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

- عدا الذئب على شاة فأخذها فجرى الراعي خلفه حتى انتزعها منه فجلس الذئب على قدميه الخلفيتين وقال: ألا تتقي الله، تنزع مني رزقاً ساقه الله إليّ؟ فقال: يا عجبي، ذئب يكلمني كلام الإنس! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؛ محمدٌ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق!

قال بصوته الجهوري يهز المنبر:

- فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة ثم أتى رسول الله فأخبره، فأمر رسول الله فنودي: الصلاة جامعة، فجاء الصحابة فقال للراعي: أخبِرهم! فأخبَرهم، فقال النبي: صدق والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ويخبره فخذه بما أحدثه أهله بعده.

يضج المسجد بالتكبير وأواصل استماعي منبهراً فيكمل وقد تهلل وجهه: وفي البخاري ومسلم أحاديث عن بقرة كلمت صاحبها حين ضربها بقسوة فقالت: إنا لم نُخلَق لهذا؛ إنما خُلِقنا للحرث، وتعرفون حديث الجمل الذي شكا للنبي سوء معاملة صاحبه فقال له النبي (أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكها الله لك، إنه شكا إليّ أنك تجيعه وتتعبه)

حين جادلتهم ردّوا: فما تتعجب من كلام الثعابين معنا ومن كلامنا معهم؟ أكانوا على حق أم كنت مخدوعاً؟

أبي! الجبل الراسخ المخيف الذي لا يخشى أحداً ولا يهاب شيئاً يتكلم هامساً لأنه يخشى أن تسمعه زوجته؟ زوجته التي لم يقل إن الأجانب التي عملت خادمة تحت أقدامهم كانوا يطردونها لأنها كانت تسرقهم وتوقع بأكاذيبها بينهم وبين عائلاتهم وأصدقائهم! أتملك تلك التافهة كل هذا الجبروت!؟ كيف تحولت العاهرة من الذلة والمسكنة إلى الفجور والتعالي!؟ ثم ينهي كلامه بشطر نكتته وكأنما يُلقي إليَّ بلُغز أو يتكلم بالشفرة؟ وهل هذا وقت النكات؟ قرّرتُ؛ سأذهب إليه الجمعة القادمة؛ أنفرد به وأعرف كل شيء، في الصباح ذهبت إلى الصيدلية التي تعلوها صورة ثعبان ملتفٍ حول كأس ومخرجاً لسانه كأنه يتعمد إغاظة البشر! ما علاقة الأفاعي بالصيدلة؟ في غاية الإرهاق أدخل الصيدلية، على غير عادته أجد وجه مصطفى متغيراً يبدو عليه الإرهاق أو الحزن، قلت:

- ما لك يا مولانا؟ تنهّد بشهقة طويلة:

- جاءتني مكالمة منذ دقائق، والله لا أعرف كيف أبلغك، لكنهم ألقوا بكل الهم فوق رأسي!

- تكلم يا ابن خالي، بكى بحرقة فهززتُ كتفيه:

- قل يا مصطفى، ماذا حدث؟ فقال مرتعشاً:

- زوج عمتي؛ أبوك الحاج صالح.. البقاء لله!!

◉ ◉ ◉

نقطتان..

اختار قلبي دعاء واختار عقلي نادية، فاز العقل بعد حرب كادت تهلكني! شهر العسل؛ مهرجان السينما بروما؛ أجلس بجوارها وأمسك بيديها البضتين في سعادة، تظلم القاعة ويبدأ الفيلم الصيني؛ أسطورة قديمة عن أختين من الأفاعي؛ بيضاء وسوداء ذهبتا إلى الشاطئ وتحولتا إلى فتاتين رائعتي الجمال حين جاء الفتى زو زيان- أي الخالد بالصينية- فأحب البيضاء ووقعت في غرامه؛ يتزوجان ويفتتحان محلاً لبيع الأدوية والأعشاب وتزدهر تجارتهم بسبب قدراتها السحرية العجيبة، لكن أحد الرهبان يكتشف الحقيقة ويخبر (زو) أن زوجته في الحقيقة أفعى وأنه لابد من التفريق بينهما ويعطيه سائلاً سحرياً لتشربه فيفاجَأ بها تتحول إلى أفعى بيضاء فيفقد وعيه وحين تفيق تُصدم بمرآه ميتاً فتسافر وتصارع الأهوال لتحصل على عشب سحري يعيد له الحياة وتنجح في النهاية ويعودان لبعضهما وتصبح بشرية خالصة وينجبان طفلاً جميلاً! أضحك:

- أساطير، فتبتسم:

- ربما!

في سيارته يصطحبني مصطفى، ينهب الطريق لنجد الجثة وحولها زيونية وعمي حجازي- بسلاحه- وسماح وممدوح، بعض جيراننا الطيبين يحركون

الهواء الساخن حوله بمراوح من الورق المقوى، أكشف الغطاء فأجد الجسد المسجى والوجه الثلجي الأزرق، أقبل جبينه باكياً ثم أهوي إلى يديه اليابستين وأقبلهما مرتعداً:

- تأخرت عليك كثيراً يا أبي، بعد دقائق هزّني مصطفى:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، انهض يا علي، إكرام الميت دفنه!

خلف أستار الدموع الثقيلة أتبين نقطتين حمراوين على صفحة عنقه اليسرى بينهما مقدار عرض أصبع، أهتف بعمي بطريقتي الساذجة القديمة:

- آبا حجازي! ما هذا؟ بيد عصبية يضغط على كتفي:

- مالك يا ابني؟ أقول:

- ما هاتان النقطتان؟ ولماذا تلك الزرقة المبكرة؟ يتعجب:

- ماذا تقصد؟ الجو حار ونريد أن نعجل بدفنه، فصرخت:

- لا، أبي قُتِل! يبتسم ممدوح فيستفزني:

- ماذا تقول يا علي؟ وكيف؟ هذه أوهام، ينظر مصطفى في حيرة:

- لماذا تقول ذلك؟ يرتجّ البيت من صراخي المجنون:

- ألا ترون ما أرى؟ أنا متأكد؛ هذه ليست وفاة طبيعية! أجثو على ركبتيّ وأذكرهم: ظلت أمي ليلة كاملة حتى ظهرت تلك الزُّرقة، أما الآن فلم تمض ساعتان؟ لستُ مجنوناً، أبي مات مقتولاً!

بوقاره يدخل في عباءته السوداء ويربت على كتفي مهدئاً:

- البقاء لله، لا عليك يا حبيبي، قل ما تريد وسننفذه فوراً، هتفتُ:

- خالي، أبي مات مقتولاً، لابد من بلاغ؛ للشرطة؛ للنيابة! ينهرني عمي بعصبية للمرة الأولى في حياتي قابضاً على بندقيته:

- وسين وجيم وطب شرعي وتشريح للجثة وتقطيع؟ ويا ليت هناك شك، الجو حار والزرقة طبيعية وأخي لم يكن له أعداء، يسكت لحظة ثم يعلو صوته: هذا جنون، حتى طبيب الصحة قال إن الوفاة طبيعية؛ سكتة قلبية، يكشف الملاءة ويواصل:

- انظر يا حاج عبد العزيز يا أمشاطي، انظر يا دكتور مصطفى، يا عالم يا هوه، أنظروا جميعاً؛ ليس هناك جروح ولا طلق ناري ولا شيء! ماذا بك يا علي؟ يحتضنني خالي ويقول:

- اهدأ يا حبيبي، سنفعل كل ما تريد ولكن فكر بالعقل، أصرخُ من جديد:

- وما هاتان النقطتان؟ ينظرون إليّ وكأنني أهذي، ترد سماح باكيةً:

- ماذا؟ أي شيء! ربما أُصيب أو جرح نفسه قبل الوفاة، ثم قامت تحتضنني:

- حبيبي، لا تجعل الحزن يؤثر على اتزانك، أتفلت من ذراعيها، أواجه الحرباء:

- أين كنتِ وقت الوفاة؟ تمصمص شفتيها غير مبالية:

- وأين أكون في السادسة صباحاً؟ كنت أجهز له الفطور، أسيطر على نفسي بالكاد كي لا أصفعها:

- وأين كان أبي؟ فابتسمَت:

- وما الفرق؟ تلمح نظراتي النارية فتسرع:

- كان على الأريكة تحت أشجار المانجو، يبتسم ممدوح ليزيد احتراقي:

- معذور يا جماعة الوفاة المفاجئة أثرت في أعصابه، تتمالك الفاجرة نفسها:

- لا تنظر إليّ هكذا، أتريد أن أجهض ما في بطني؟ ألا يكفيك أن يولد يتيماً؟

يسارع عمي بحنان تاركاً قبضته على سلاحه ويبتسم لها:

- هو فقط حزين لموت أبيه، اذهبي وارتاحي في غرفتك فالحزن مُضِر على جنينك!

اتصال من عزة تعتذر باكية:

- والله لا أستطيع الحضور

أُصِرّ على موقفي والجميع يتعجبون، وماذا تعني نقطتان أو جرحان؟! حتى مصطفى وخالي غير مقتنعين، يجتاحني جنون مطبق، لكن خالي قال:

- سنريحك، يا حاج حجازي، بلاغ للنيابة، هتف شقيق والدي:

- تعوم على عومه؟ جثة أخي ستتقطع! الرجل الطيب العاقل الذي رفض طيلة حياته أن يذهب إلى مستشفى وكان يقول: أموت على فراشي بلا معاناة، تريدون أن يتم تشريحه؟ ولماذا؟ وما الدليل؟ يقبض على بندقيته من جديد ويصرخ:

- على جثتي، يلتفت خالي إليّ:

- كلام عمك منطقي، لكن لا عليك، المهم أن تطمئن، اذهب يا مصطفى وأبلغ الشرطة!

أيام من التحقيقات والشكوك؛ شرطة متململة؛ أصدقاء لعمي يسألون كل دقيقتين: هل أنت مُصر على استكمال التحقيق؟ ثلاجة قاسية البرودة، طبيب شرعي متجهم! نيابة تعاين وتفحص، تقارير يرفضون اطلاعي عليها حتى يأتي الخبير! أيُّ خبير؟ ثم تنجلي الحقيقة البسيطة القاتلة؛ من بين أشجار المانجو جاءته! سبب الوفاة: جرح حية سامة؛ نقطتان حمراوان لا ثالثة لهما تبعد الواحدة عن الأخرى حوالي بوصة! وماذا بعد؟ جاءت الإجابة المتوقعة- بسيطة كذلك: وماذا بعد؟ أتريد أن نطارد الثعابين لنكتشف قاتل أبيك؟ والنتيجة: حِفظ للتحقيق وندفن أباك الذي تسببت في كل هذا الإزعاج لروحه! نظرات متشفية من زيونية، نظرات مشفقة حزينة مع قليل لوم من سماح، ونظرات حانية من مصطفى وأبيه: هل ارتحتَ الآن؟

أجر أذيال خيبة لم أقصد توريط الجميع فيها وأقول لعمي:

- ثبتت صحة كلامي؛ مات مقتولاً، ضحك بشدة ثم توقف فجأة وقال بجدية صارمة:

- وهل هناك قانون يعاقب الثعابين لأنها تلدغ؟

أعود بعد الجنازة والدفن إلى مولاي الرفاعي:

- أرجوك، خبرني عن الأفاعي السامة! يؤكد ما عرفت عن عضَّتها، ثم يستطرد:

- أما عضة الثعبان غير السام فتترك عدداً كبيراً من النقاط لكثرة أسنانه

- وكيف أعرف الثعبان السام دون أن يعضّ؟

- السام تكون رأسه مبططة مثل الجنيه الفضة أما غير السام فرأسه طويلة مثل الأصبع

- زدني

- غالباً يترك الثعبان السام أثراً في وسط موضع حركته على الرمال

- أثراً؟ فيكمل:

- خط دقيق واضح مثل الحَزّ، أما غير السام فأثره على الرمال ناعم عريض. يتهامس الناس حولي، هل جُنِنت؟ وما شأني بكلام الناس؟ تلك قضية حياتي الآن! لابد أن أعثر عليه وأقتله!

سألت مصطفى فأخبرني عن تلك الصورة فوق لافتات الصيدليات:

- الأقوال شتَّى؛ يقول بعضهم لأن الأدوية قد تُستخرج من سموم الأفاعي، أو إنه رمز لحكيم الشفاء عند الإغريق (اسكليبوس) المسافر دوماً يحمل عصا يلتف حولها الثعبان الذي عرَّف اسكليبوس بنبتة الحياة حين ظهر له ثعبان في الصحراء فقتله، فجاء ثعبان آخر يحمل في فمه نبتة وضعها في فم الثعبان الميت فعاد إلى الحياة فعلم اسكليبوس بسر هذه النبتة وأخذ

يستخدمها لأحياء الموتى وشفاء المرضى ولذا تضع الصيدليات الآن صورة الثعبان والعصا والكأس رمزاً للداء والدواء!

أسأل شيخي الليثي:

- وماذا يفعل شتاءً؟

- يغير جلده؛ يمتنع عن الطعام ويختار مكاناً آمناً ويتلوَّى فيحتك بالرمال والصخور حتى يطرح ثوبه القديم

- ولكن لماذا تغير الثعابين جلودها؟ فيبتسم:

- ولماذا تغير ثوبك الذي ضاق؟

- لأن جسمي يكبر فتضيق الملابس

- وأجسامهم تنمو أسرع من جلودهم، فقلت متوجساً:

- ولكنهم يقولون.. فأكمَل:

- إن الجن تغير جلود الأفاعي، لا تصدق كل ما يقال

- ولكن أليس للجن علاقة بالحيات؟ فابتسم:

- لا شيء في هذا الكون إلا وله علاقة بكل شيء!

- وهل ورث الرفاعية القدرة على السيطرة على الأفاعي من أبيهم الرفاعي الأكبر؟ فردّ:

- الرفاعية ليست عائلة! الرفاعي الكبير نفسه في الحقيقة لم ينجب

- ولكنهم يقولون ... فقاطعني:

- قلت لك لا تصدق كل ما يقال، هو لم ينجب رغم أنه تزوج أكثر من مرة، الرفاعية ليست وراثة، بل طريقة صوفية، يمكن لأي أحد أن يكون رفاعياً، قلت:

- وتخضع له الحيات؟ فضحك:

- من يخضع لمن؟

- الأفاعي تخضع للرفاعي، فابتسم:

- يزعمون!

أما عادل والذي نناديه بلقب عائلته: طُلبة! فلا يتوقف عن طيشه وتدبيره للمقالب؛ كنا نتمشى في شوارع كرداسة فيجري فجأة ليضرب جرس أحد الأبواب ثم يفر راكضاً لنتورط- أنا والرفاعي الصغير- في الاعتذار! قال لي:

- أما عائلتنا فتقبض على الأفاعي؛ نبيعها أو نسلمها لحديقة الحيوان أو لمعامل الصحة يُجرون عليها أبحاثهم، أو نقتلها ونشرب من دمها إذا لزم الأمر! فقلت:

- ولِمَ؟ فضحك:

- يقولون إن شرب دمها الطازج يقوي الفحولة! ثم همس في أذني ببضع كلمات فهتفتُ:

- ما هذا الجنون؟ وهل يتزوج البشر من الأفاعي؟ ضحك وقال:

- وربما ينجبون منهم أيضاً!

فزعت إلى قطب الرفاعية فقال:

- وماذا تقول عن أقوال المسيح عليه السلام، اقرأ في الإنجيل كيف يخاطب اليهود (أيتها الحيات أولاد الأفاعي) لم يكن المسيح يكذب بالتأكيد! قلت:

- أقوال مجازية تعني أنهم أشرار مفسدون؛ يشبههم بالحيات المؤذية

- ربما، وربما لا، ثم قال:

- ومعروفة عندك قصة مسخ بعضهم قردةً وخنازير!

◉ ◉ ◉

كالسحر؛ طقوساً وأثراً، يدخل البيت مردداً آيات الله بخشوع، ومن الذي لا يحتاج إليه؟ هذه عائلة تخشى الأفاعي، هذه تأخر سن زواجها، هذا مربوط لا يصل إلى امرأته، هذه تزوج رجلُها من أخرى وابتعد عنها، وتلك تأخر حملها، وتلك تجهض كلما حملت، وتلك يموت أولادها الذكور، وهذا وهذه وذاك وتلك، لا يخلو الناس من المصائب والابتلاءات، ولا يسمع شكاواهم مثل الرفاعية!

تكبرني عزة بنحو عشر سنوات، ومنذ سن السادسة عشرة يتقدم لها الخُطّاب من كل صنف ولكنهم يرحلون ولا يعودون! ولكن أمي تنسى أن عزة كانت ترفض أغلبهم لأنهم غير متعلمين! حتى تخرَّجَت من كلية الحقوق فكان لابد من وقفة، تُلِح أمي:

- أمثالها صِرن أمهات! يتهرب أبي ثم يستسلم تحت وطأة التكرار؛ يدور بها على المشايخ حتى نجده يوماً وقد جاء ومعه رجل أسود أشعث بثوب مرقّع:

- منصور الرفاعي؛ من (أبو رواش) شيخ بركة؛ سره باتع، يدور في كل غرفة ثم يقول فجأة:

- اخرجوا من الدار! نخرج وجلين ويبقى أبي معه؛ يغيبان نحو نصف ساعة ليخرج منصور ومعه كيس من الخيش يرينا من بُعد ما بداخله؛ حية تتلوى

بسرعة ويتلو عليها أوراداً لم أفهمها، ولكنه وسط عباراته المُلغِزة يردد: بالصلاة على النبي وآله، ثم أغلق الكيس وقال بفخر:

- حبستُها وأخذتُ عليها العهد ألا تعود ولا تؤذيكم أبداً، سألني:

- كم عمرك؟ فقلت مرتعشاً:

- ثلاث عشرة

- أنت رجل، لا تخش شيئاً، الحية شيطان كان يمنع الخُطّاب، والآن انحلت العقدة!

مشيناها خطىً كُتبت علينا، تعلمت أورادهم: بعد صلاة الفجر والمغرب وأنت على حالك من الطهارة متوجهاً للقبلة؛ اقرأ يا ولدي فاتحة الكتاب مخلصاً لله، منقطعاً عن كل شيء سوى حبّ الله، ادعُ راجياً القبول، متذللاً طالباً العفو والمغفرة والتوبة النصوح، خائفاً من عذابه آملاً في رضوانه، ثم قل: أستغفر الله العظيم وأتوب إليه مائة مرة، ثم قل اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم مائة مرة، ثم قل لا إله إلا الله مائة مرة، ثم اقرأ الفاتحة ولا تنس أن تهب ثوابها بالترتيب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم إلى الإمام علي بن أبي طالب ثم إلى السيد الرفاعي الكبير- رضي الله عنه- ثم إلى شيخك في الطريقة ثم إلى أهل الطريقة وعامة المسلمين!

ندخل فتجلس عزة أمامه، يعطيها ورقة بها مربعات حمراء وبداخل كل مربع حرف من حروف الفاتحة مع كلمات لم نفهمها:

- هذا حجاب تُعلقيه في عنقك، واحفظيه دوماً، به كما ترون آيات قرآنية، لا تدخلي به دورة المياه إلا مُغلّفاً، إياك أن تهمليه أو تدعيه يضيع، سألَته بدهشة:

- وما علاقة الحيات بالشياطين؟ فأجاب:

- ألا تعلمين؟ مِن الحيات مؤمنات ومنهن شياطين، فقالت متحدية:

- وتعرف أنت؟ فقال:

- إياكِ والغرور، إن لم تصدقي كلامي فأنت حرة، ولكن لن تتزوجي أبداً، فهتفت أمي:

- لا يا سيدنا الشيخ، هي فقط تطمئن أنك لست من أولئك النصابين، ضحك الرجل بشدة وقال بصوت مرعب:

- أنا رفاعي ابن رفاعي! ألا تعرفون من هو الرفاعي؟ فقال أبي:

- تقصد الرفاعي الأكبر؛ سمعنا عنه الكثير، فأكمل بصوت اقشعر له جسدي كله:

- سيدنا القطب الغوث الجامع الشيخ السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه؛ حفيد النبي الذي حج قبل تسعمائة عام فلما وصل إلى المدينة طلب مصافحة النبي فمدَّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم يده الشريفة من قبره فقبّلها الرفاعي أمام تسعين ألف شاهد! نصّاب؟ أنا ابن الرفاعي الذي كان يخطب جالساً في العراق فيسمعه من بالشام، وكان يأتيه الفقير يطلب طعاماً فيشير إلى الطيور في السماء فتنزل مشوية بين يديه فيأكل ضيفه ثم يأمر عظامها

فتعود كما كانت تلمّ ريشها وتطير من جديد! الرفاعي الذي أبرد الله لأتباعه النيران، وأبطل لهم السموم، وألان لهم الحديد، وأذل لهم السباع والحيات، وأخضع لهم مردة الجن، الرفاعي الذي صام رمضان وهو ابن شهرين، الرفاعي الذي خلقه الله من النور ووهبه علم ما كان وما سيكون! هنا وقف أبي معترضاً:

- لا يا مولانا، بل هو مخلوق مثلنا، ولا يعلم الغيب إلا الله، فنظر الرجل ساخراً:

- إلا من ارتضى! فقالت عزة:

- إلا من ارتضى من رسول؛ يؤيدهم الله بالمعجزات، فضحك الشيخ بشدة وهتف:

- وللأولياء كرامات! أتنكرون أن الرفاعي من أولياء الله الصالحين؟ لن أضيع وقتي معكم، إن شئتم فنفذوا ما قلت بالحرف وسوف يأتيكم العريس بل العرسان، وإلا فافعلوا ما تريدون ولا تلوموا إلا أنفسكم!

سمعت أمي تهمس لأبي:

- وكم سنعطيه؟

- لم يطلب مبلغاً معيناً بل قال هي (وهبة) منكم حسب ما ترون، فقالت:

- عشر جنيهات؟ أخذ أبي المال وأعطاه له فقال غاضباً:

- لستُ شحّاذاً، أريد خمسين!

سألت أبي بعد تلك الليلة الليلاء: ولم ذهبت إلى أبو رواش، وعندنا هنا الشيخ أحمد كبير الرفاعية؟

- ذهبت إليه فقال: هذه أمور قدرية، أكثروا من ذكر الله وسأدعو لابنتك أن يرزقها الله زوجاً صالحاً!

وبعد ذلك بنحو عشرين عاماً سألت شيخي الليثي فأجاب:

- ليسوا سواءً؛ من الرفاعية أولياء صالحون ومنهم خبثاء مشعوذون!

ولكن المعجزة حدثت؛ جاءنا الدكتور عصام الشامي! وتمت الخطبة على خير ما يكون وتزوجا ورحلت معه إلى بلاد النفط!

ظل الأمر- مع غيره من الحكايات- مثيراً! مَن هؤلاء وكيف يفعلون ذلك؟ قوة الأثر على صغير في سني ثم اقترابي من صديقي الرفاعي الصغير وحواراتي مع أبيه دفعتني إلى سلوك الطريق بعدها بسنوات قليلة! مُريداً ضئيلاً يلقنونني: ينبغي أن تكون صاحب أدب وخشوع، عارفاً بمكانة شيخك، منقاداً له، لا تعترض عليه، لا تصاحب له عدواً، ولا تُعادِ له صديقاً، بل: كن مستسلماً بين يدي شيخك كالميت بين يدي من يُغسِّله!

أما سماح التي تصغرني بعامين فاكتفت بدبلوم التجارة وسرعان ما طلبها ممدوح وتزوجا في شقته بكرداسة.

البيعة؛ جالساً فوق سجادة طاهرة وحولي أربعة من رجال الطريقة يظلونني من فوقي بملاءة بيضاء، أقرأ الفاتحة ثم أردد خلف شيخي ما يقول:

- رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً ورسولاً، رضيت بشيخي علاء مرشداً على الطريقة الرفاعية؛ وأعاهده على السمع له والطاعة؛ لا أرد له كلمة ولا أعصيه في معروف، فقال:

- أوصيك بتقوى الله، قل ورائي: لا إله إلا الله، ثم وضع جبهته على جبهتي، ويده اليمنى على صدري، ودعا لي بالإخلاص والتقوى، ثم قرأ الفاتحة، وقام معي إلى القبلة وقال:

- قل: اللهم صل على عبدك ونبيك ورسولك محمد أول الخلق! وخاتم الرسل والأنبياء أجمعين، ثم ختمنا بالفاتحة.

لم أجرؤ أن أسألها! لكن القدَر أعلمني، آهٍ يا أختاه، ربما لو قلتِ لي الحقيقة منذ البداية لما كان ما كان! رأيتها تهدئُ أمي: اطمئني؛ سأضع الحجاب في عنقي ولن أخلعه أبداً، لكنها ذهبت من فورها وأحرقته! ورغم ذلك جاء ابن عائلة الشامي العريقة: عصام!

بالكاد أتذكر ملامح أم حبشي العجوز ولهجتها الإفريقية المضحكة؛ كانت جارية عند جد أمي اشتراها بماله وأهداها لأمي قبل أن ينقرض العبيد! تزوجت سُفرجياً من أقاربها وأنجبت ابنها الوحيد (حبشي) الذي يكبرني بنحو عشرين عاماً، درس في المدارس والجامعات المصرية ثم ترك أمه ورحل إلى بلده، وأعتقتها أمي لوجه الله لكنها ظلت تخدم في بيتنا برغبتها إلى أن ماتت!

تتشرب الطريقة رويداً رويداً، أتعلم الخلوة كل عام؛ سبعة أيام متتالية، تبدأ بالحادي عشر من محرم، عزلة تامة في ظُلمة لا يشاركك فيها أحد، ويكون طعامك مثل صيام إخواننا المسيحيين! خالياً من كل ذي روح!! استحضر بقلبك أن شيخك أمامك يهديك ويُبصِّرك! تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه مئة مرة بعد كل صلاة، وتردد في أول يوم: لا إله إلا الله، وفي الثاني: يا الله، وفي الثالث: يا وهّاب، وفي الرابع: يا حي، وفي الخامس: يا مجيد، وفي السادس: يا مُعطي، وفي السابع: يا قدوس، لن تعرف أبداً من أين ابتدعوا تلك الخلوة ولا أذكارها المحددة! ويوصيك الشيخ علاء المتأنق: لهذه الخلوة فتوحات محمدية عظيمة القدر لا تُحصى ولا تُعدّ، من حافظ عليها شاهد البراهين الهائلة وكُشفت له الحُجُب!

في الليلة الوحيدة التي لم أقرأ فيها الأوراد ولا آية الإبصار! رأيت زيونية تأتي وسط ضباب كثيف في صورة امرأة ناعمة بالغة الحسن، مسحت جبيني ثم قبّلت ذراعي!! ثم جاء عمي حجازي وسحبها بهدوء وكأنهما لا يريدان إيقاظي، وجاء مصطفى يهزني بشدة! فقمت مرتعداً أردد من جديد:

- من قتل أبي؟ من سرق كنزنا؟

نجلس في حلقات كل يوم بعد العِشاء، نقرأ الفاتحة، ثم نقول: دستور! نستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل البيت والصحابة والأولياء وسيدنا الرفاعي، وإياك أن تنسى السلام على مولانا الخضر عليه السلام! ثم

نطلب المدد، ثم نقرأ الأوراد ونختم بالفاتحة، وفي ليلة الجمعة نحضر عدة (النوبة) ندق الدفوف والطبول الكبيرة، يتمايل البعض راقصاً مع الأشعار والمديح! وفجأة يقف أحدهم معلناً:

- حضر الحبيب معنا الآن! أتعجب فيقولون:

- لقد رأى رسول الله يحضر معنا! أستفهم في هيبة:

- وهل يرى أحدٌ النبي- صلى الله عليه وسلم- في اليقظة؟ فيجيبون:

- تلك فتوح من الرحمن!

◉ ◉ ◉

لقاء!

تضع الملعونة طفلها؛ موسى، وسرعان ما تتزوج من عمي كما انتظرتُ وكما توقَّع الجميع، بل وكانوا يحثونهما: كيف يتربى ابنكم في حجر رجل غريب! الشبه الكبير بين الرضيع وبين أبي أزال شكوكي المجنونة حول زيونية.

زياراتي للرفاعي الصغير في بيتهم زادت صداقتنا عمقاً، أرى والده المهيب كثيراً، وسرعان ما توطدت صلتي الطفولية بالأم؛ حانية كريمة لكنها – على عكس أم عادل– لم تصادق أمي، ربما لانشغالها دوماً بضيوف دارها؛ لا تكف عن إتحاف الجميع بأصناف الطعام والحلوى! ومع الأُلفة تزول الكُلفة ثم تتعرف على الجميع؛ الأبناء والبنات!

التدرج في الطريق.. فلاح أم خسران؟! صرت أفهم لغتهم! أكان من حسن حظي أن أصل إلى تلك الدرجة!؟ أم أنها اللعنة التي قرأت عنها! أكانت حقيقة أم محض أوهام؟ ينطق مندوبهم الضخم بصوت لا كصوت البشر ولكني أفهمه رغم اختلاطه بالفحيح المرعب؛ أو هو ترجمة صوت الفحيح! يرد على سؤالي وهو يلتف بنعومة حول جذع شجرة:

- لا نريد سوى العدل

- أي عدل؟ زيادة الإتاوة دون مقابل!

- وهل نموت جوعاً؟ ألا تعرف أنه لا يوجد ثعبان نباتي؟

- بل قوموا بدوركم الطبيعي كما في كل الدنيا! فضحك:

- وما هو يا رفيقي؟

- تقتاتون على الجرذان والزواحف وتتركون القرية وبيوتها في أمان

- ما هذا التعالي؟ لا يستطيع الإنس أمثالكم أن يعيشوا مثل حياتنا القاسية

- حياتكم! القاسية؟

- تمهدون الأرض حتى تصبح ناعمة كالحرير، لا تسيرون إلا على الأسفلت بينما نتعذب بين الصخور!

- وما الذي يزعجكم في ذلك؟

- تبحثون عن الراحة والكسل ونعيش في الكد والتعب

- لله في خلقه شؤون!

- تقولون هذا لأنكم تتمتعون برغد العيش، أليس من العدل أن ننال بعض مزاياكم؟!

دعاء! ابنة الرفاعي الكبير؛ الهادئة لا تكاد تسمع صوتها، الجميلة دون أي زينة، المحتشمة دون شعرة نافرة! تصغرنا بعامين وتقدم لنا الشاي الخفيف بالنعناع الأخضر والبقلاوة الذائبة في السمن البلدي، والأهم؛ صواني الفتة المغطاة بقطع اللحم المسلوق والمطهية بالخل والثوم! تهمس ولا تتكلم، تبتسم ولا تضحك! سلبت قلبي في عملية سطو لذيذة أعيش في أحلامها الهنيئة كل ليلة، أقوم فيعاودني خيالها المحبوب، أتنقضي الأيام حتى نلتقي

تحت سقف واحد؟! في طريقي إليهم أشتري من أم أمل عقداً من الفُلّ أهديه لدعاء سراً في لحظة نادرة، تهمس خجلة: ما أجمله، بوركت!

- تتجنبون الخشونة ونعيش في قلبها، ترتدون أجمل الثياب ونلتزم جلودنا الضيقة التي تشبه ألوان الصحراء

- غير صحيح، تعيشون في كل مكان؛ في الماء وفي الزراعات وبين الأشجار وفي الصحراء، لا يخلو منكم موضع! أما ألوانكم ففي غاية الأناقة؛ مزيج من الأصفر والبني والأخضر ليسهل عليكم التخفي من أعدائكم!

- تزيحوننا من أماكننا رويداً رويداً

- هكذا خلق الله الدنيا وقسّم الأرزاق؛ أماكن لنا وأماكن لكم وأماكن للجميع

- وحين تريدون أخذ جزء من أراضينا تقومون بطردنا بلا رحمة

- نعمر الأرض ونبني أماكن جديدة

- أتعرف أننا من بين المخلوقات ننام بأعين مفتوحة خشية غدركم؟ ألا ترى قدر الظلم الواقع علينا

- لا أرى إلا حقداً يشعل قلبك

- لا تفهم شيئاً

- المهم أنني فهمت مكركم

- وأنا أحببتك!

يفاجئني مصطفى:

- سأفتتح صيدلية جديدة أقرب لك كثيراً؛ كرداسة

- جميل، قريبة بالفعل، ما شاء الله هذا ناتج مجهودك ومثابرتك، يبتسم:

- بل بفضل الله أولاً ثم بفضل اجتهادك معي

- سبحان الله؛ حين أجلس معك تُذكِّرُني بالله ونعمه ببساطة تأسرني، وحين أجلس مع الرفاعية نكثر من الأذكار والأوراد لكنني لا أشعر بتلك الحلاوة، فقال:

- القلب أصدق من اللسان!

أُلفة عجيبة، كيف ولماذا يقول إنه يحبني؟! لكن الكشيش حين حرك حراشيفه أربكني من جديد:

- تعاهدنا مع أجدادكم سنين طويلة وأنتم من ينقض العهود الآن!

- أي عهود؟

- أمنكم على بيوتكم وبهائمكم مقابل نسبة تافهة من الفراخ والكتاكيت!

- بل أنتم الغادرون، أنتم من خنتم العهد، ألستم من قتل أبي؟ هتف بدهشة:

- أبوك؟ لا، لم نقتله بكل تأكيد

- قتله ثعبان سامٌ تخفى بين أشجار المانجو، ألا تعرف؟ بعينيه الجاحظتين أطال نظراته إليَّ ثم قال متحيراً:

- لا أعرف عن أبيك شيئاً، ولن نترك لكم أرضنا بعد ذلك لتفعلوا بها ما تشاؤون

- لكن أكثر مساحة بلدنا هي في الواقع صحراء؛ مِلكٌ خالص لكم!! نحن؛ بل المصريون جميعاً لا نعيش إلا في شريط زراعي ضيق حول النيل تشاركوننا فيه ثم تتمتعون فوق ذلك بكل ما تريدون وتعيشون حياتكم في الصحراء الشاسعة

- نريد بعض مزاياكم؛ بعضاً من الظل والماء، هذا حقنا، أم أنه كُتب علينا أن نعيش في الهجير والصحراء؟ لماذا يزين حياتكم لون أخضر بهيج ونعيش في الرمال الكئيبة؟ دافعنا عن قريتكم كثيراً ضد هجمات الجرذان والسحالي وأنتم تتمتعون بخيراتها وتبخلون علينا ببعض رفاهيتكم! لن يستمر الوضع هكذا.

على عكس ما توقعت؛ يهتم عمي حجازي بالصغير اهتماماً بالغاً، يكاد لا يتركه لحظة، هل ظلمته بظنوني؟ هو ابن أخيه اليتيم على كل حال؛ يبدو أنني أحببته! بدأت أتأثر بضحكاته الطفولية وبكائه الساذج يبحث عن ثدي أمه! نظراتها تفهمني ولا شك، والصب تفضحه عيونه، بيتُ كرمٍ لا يغلق أبوابه أمام أحد؛ والدها يخصني- رغم انشغاله- دون مريديه بحوارات ماتعة لا تخلو من مبالغات أسطورية مضحكة حول الرفاعي الأكبر، وأخوها صديقي لا ينازعه في قلبي إلا ثالثنا: عادل طلبة، وأمها تعاملني بحنان فائق

لا أراه مع غيري من الزائرين- وهم كُثر- المسألة مسألة وقت أُطمئن نفسي أنه سينقضي وإن طال لهيب أشواقي بنهاية سعيدة، فقط أُنهي دراستي وستكون الفتاة الملائكية لي؛ وحدي!

- ولكنكم منذ سنوات تعيشون في رغد في قصورنا المهجورة؛ نحضر لكم طعامكم من قوتنا؛ الفراخ والكتاكيت والبيض؛ ونوصلها إلى أماكنكم دون تعب أو عناء منكم، فقال:

- لا تنس أننا سبب رخائكم واستقرار معيشتكم

- تقصد سبب شقائنا المستمر!

- لولانا منذ سنين لكانت كل أراضيكم نهباً للفئران والذئاب والعقارب، لولانا لهجرتم أرضكم مثل جيرانكم، لولانا لصارت بلدكم خراباً! قلت:

- وهل حالنا الآن أفضل؟ بدلاً من الفئران والثعالب تحتلون أرضنا سنين؛ تتمتعون بخيراتها وتمتصون دماءنا وعرقنا ولا تتركون لنا إلا الفتات! لن أسكت على هذا النهب، وسأبحث عن قاتل أبي وأثأر منه!

يكمل مصطفى حديثه:

- سأتولى مهمة الإشراف فقط وأترك لك الصيدلية الجديدة تديرها بنفسك، فتعجبت:

- ولكن خبرتي لم تكتمل بعد، فابتسم:

- بل أصبحتَ متمرساً، لا تقلق؛ لن أتركك وحدك؛ سأمُر عليك كل ليلة حتى تستقر الأمور وإذا احتجت شيئاً اتصل بي

- هذه ثقة غالية لكنني لا أستطيع، فتعجب:

- لماذا؟

- مسئولية كبيرة، وأخاف أن نختلف؛ تعرف المثل السائر: يظل الإخوان إخواناً ما لم يدخل بينهما بنات أو أموال، فضحك:

- أنت شريكي يا علي؛ تدير العمل ولك نصف الأرباح! فانتفضت:

- كلا أرجوك، لم أدفع شيئاً وليس عندي ما أشاركك به، أنت صاحب المال ومدير العمل، لن أقبل بهذه الشركة!

- انتهى الأمر وكتب المحامي الأوراق، لماذا تقلل من قيمة مجهودك؟ فسألت:

- وهل يعلم خالي بذلك؟

- وشهد على العقود؛ هيا لنجهز للافتتاح.

أكمل الثعبان:

- بل نترك لكم الكثير ولو لم نكن هنا لسادت الفوضى

- بل لساد الأمن وتفرغنا للعلم والإنتاج، الثعابين موجودة في كل بلاد الدنيا لكن لكل مخلوق حدوده، طيبة أجدادنا أطمعتكم فينا، لن ننفذ ما تطلبون

- وهل أنت صاحب القرار، أم مندوب الرفاعية؟

- بل مندوب شباب القرية إليكم، فضحك بشدة:

- ألم تسأل نفسك يا صديقي كيف تكلمني هكذا وتفهمني رغم أنك لست من الرفاعية؟

- كنت منهم، فقال ببطء أربكني:

- أنت لا تعرف نفسك، فأجبت بعصبية:

- لا علاقة لك بي، ارحلوا من القصور ولن نؤذيكم

- تؤذوننا! كان أجدادكم أعقل منك كثيراً، ستخربون البلد

- بل سنعمرها

- فكر مرة أخرى وتشاور مع الكبار ثم عد إلينا بقرار مدروس

- بل هذا كلام نهائي، ارحلوا وإلا أحرقناكم وطردناكم

- فأنت الجاني إذن على أهلك؛ جرِّب وسترى؛ سيكون الوضع أسوأ بكثير

- سنرى، فقال يستفزني مخرجاً لسانه المشقوق:

- سنرى، لكن لا تقلق، لن يصيبك مكروه، نظرت إليه بدهشة فأكمل:

- قلت لك؛ لقد أحببتُك!

◉ ◉ ◉

أم أمل..

يكثر كلام الناس حوله في غيابي ويسكتون حين أحضر، لكن للشيخ هيبةً ووقاراً طالما منعاني الجرأة على سؤاله الصريح: من أنت؟ من أين أتيت؟ هل الليثي اسمك أم لقب عائلتك أم اسم أطلقته على نفسك أم أطلقه الناس عليك؟ ما هذا النور المتلألئ على جبينك يضيء المكان كله حين تقوم في الليل رغم غفوة المصابيح؟ يتحدث الرفاعية عن كرامات أوليائهم؛ ويكثرون الأكاذيب؛ لكن وهج نورك عندي كرامة أكبر من كل ما يزعمون من تخاريف! ظننت أنني عرفت السر الأعظم حين ذهبت لأواجهه؛ قلت له تلميحاً بلهجة المنتصر:

- الليث أفقه من مالك؛ لكن تلاميذه لم يقوموا به! فقال:

- تطورٌ محمود؛ أصبحتَ تقرأ مأثور الشافعي؟ فقلت مبتهجاً:

- قرأت سيرة الإمام الليث وأنت بالفعل أشبه الناس به، ألهذا انتسبت إليه؟

دثرتني خيبة الأمل حين ابتسم وهز رأسه نافياً:

- أما زال السؤال يشغلك؟ ما أنا إلا عبد فقير أرجو رحمة ربي

- إذن تحاول التشبه به؟

- إن التشبه بالرجال فلاحُ، فتجرأتُ:

- إذن كلامي صحيح؟ فقال:

- سبحان علّام الغيوب!

للأطفال النصيب الأوفر من التلقائية والبساطة، لكن الفتاة "أمل" ذات السنوات الخمس نالت شطر البراءة! تتحرك بعفوية محببة وتحاول الكلام لكنها صماء! الفقر البادي على أمها لا يمنعها من أن تُلبسها دوماً ثوباً نظيفاً رائع الجمال دائم البياض وكأنما اقتبست لونه- ورائحته الزكية- من عقود الفل والياسمين التي تقدمها للرائح والغادي! طفلة غضة لا يراها أحد إلا وتسكن قلبه! لا تمنع أم أمل بضاعتها عن أحد؛ يلتف الأطفال حولها فتمنحهم ما يشاؤون وأكثر! أما الكبار فلا تفاوضهم في سعر؛ من أراد الشراء دفع إليها فتقبل شاكرة وتضع قروشه في جيب جلبابها البسيط دون عدّ، ومن أراد أن يأخذ مجاناً لا تطالبه بشيء! قررت في ذلك اليوم أن أكرمها متشبهاً- ولو قليلاً- بشيخي الليثي حين يعامل الفقراء، تخدرني رائحة عناقيدها بلذةٍ شهية! سأعطيها اليوم ربح الصيدلية كاملاً؛ مائة جنيه ورقة واحدة وأربعة جنيهات متفرقة! أتذكر كلماته: لا يحسن المعروف إلا بثلاث: تكثيره للناس واستصغاره في النفس وإخفائه! أدس المال في يدها فتدعو الله لي بطول العمر وأن يرزقني بابنة الحلال! أتعلم أن الفُلّ ذاهب إليها؟

قررت أن أغادر بياتي الشتوي مع أول شعاع دافئ يتسلل إلى الغرفة الكئيبة، أزحف في فراشي الموشّى ببقع دمي الدقيقة متمهلاً، أنزل فأتعثر مرةً أخرى في كومة الجلد التي تزداد دكانة وتسوء رائحتها؛ أتوقف لأسائل نفسي: ما

هذا وكيف جاء هنا؟ وهل هناك فرق؟ فليكن ما يكون! ألململه لأضعه في كيس أسود! تعفن المحشي وتناول الفئران وجبة شهية من البط! يا لها من وحوش ماكرة صغيرة؛ تنتابني لحظات أقرب إلى الجنون: صارت شهية في عينيّ فجأة! لماذا لا أصطاد تلك الفئران وآكلها؟ أتوا على الزَّفَر وتركوا إهاب الجلد! لن ألقي بالكومة في القمامة حتى أعرف أصلها! ولكني جمعت مخلفات القوارض وفتحت الباب لأرميها في أقرب صفيحة، ولكن أين صفيحة القمامة؟ كانت قبل أشهر في الأرض الفراغ المجاورة لبيتنا خلف مدرسة التجارة الثانوية تفرغها عربة "الكارّو" التي تجرها الحمير الواهنة كل يومين، اختفت الصفيحة وأصبحت قطعة الأرض كلها خرابة مليئة بجبال من المخلفات والماء العطن وآلاف الحشرات والزواحف، والأطفال يلعبون في مرح!

تأخذني قدماي بحكم العادة إلى إسماعيل القهوجي؛ ترحاب مفتعل أعرف أنه يرجو من ورائه كثيراً من المكافآت:

- طالت الغيبة يا دكتور! ثلاثة أشهر! الحمد لله على سلامتك، ولكني سألته:

- ما هذه الأكوام من القاذورات؟ أين الحكومة والعمدة والبلدية؟ فأجاب دون مبالاة:

- لا أحد يهتم، ثم سألني:

- ألا تريد نفحة؟ ادخرت لك عندي أجود الأصناف! طلباتك المخصوصة!
توهجت الفكرة في رأسي؛ فلأنس همومي قليلاً، ألن تتوب؟ وما جدوى التعفف في زمن القذارة؟ فقلت:

- من النوع الممتاز؟ فابتسم:

- ندخل الخُنّ؟

- هيا، ترددت لحظات ثم وليت هارباً! ما زال طيف الشيخ يرشدني من بعيد، انصرفت عن تخاريف الصوفية ثم جلسات الإخوة ثم بِدَع الرفاعية ثم عن صفاء طريقته الغراء! لكن كيف ينسى المرء ما حُفِر على القلب:

- كم عندهم من قصص وحكايات أغلبها أكاذيب واختلاقات لا تُصدَّق؛ انس الأمر كله أفضل لك؛ لا تشغل به بالك، فسألته:

- أتنكر كرامات الأولياء؟ فقال متعجباً:

- بل أنكر الأكاذيب، أربعة أقطاب أوكل الله تعالى لهم إدارة شؤون الدنيا؛ الرفاعي والبدوي والمرسي والجيلاني! لكل واحد منهم ركن من أركان العالم الأربعة يتصرف فيه كما يشاء! أهذا كلام يصدقه عاقل فضلاً عن أن يكون مؤمناً بالله؟ وكيف يكون هؤلاء الأقطاب أقرب إلى الله من أنبيائه المرسلين وملائكته المقربين؟

تتصل عزة وتلح عليّ بالذهاب إلى طبيب:

- عصام يقول إن لديك أعراض مرض بالغدة الدرقية، غريب أن تنشط صيفاً وتكسل شتاءً؟ فقلت:

- وكأنك تهتمين بي؟ فصرخَت:

- ماذا تقول؟ وبمن أهتم؟ أنت أخي الأصغر وحبيبي الأول، لولا مرض عصام ومشاغلي مع الأولاد لطرت شوقاً إليك، اتصلت بك مرّات لكنك لم ترد، سألت سماح فقالت إنها حاولت معك كثيراً فرفضت الذهاب معها ورفضت أن ينتقلوا معك، لماذا تفعل بنفسك وبنا كل ذلك؟ فقلت في لا مبالاة غريبة:

- وماذا تريدين الآن؟ فقالت:

- ما لك يا علي؟ قل لي أنت ماذا تريد؟

- لم أعد أريد شيئاً، فأصرّت:

- إذن ستذهب إلى استشاري الغدد في المستشفى؛ عصام كلمه وسينتظرك؟

- قولي يا رب!

- يا رب يا حبيبي.. أتذكر إحدى مكالماتها أيام غربتها بعد وفاة أبي:

- قل لي أخبار عمك مع العروسة؟ فقلت بضيق خانق:

- لا أعرف عنهما شيئاً، ولم أرَ موسى منذ شهور! فقالت:

- لا تقطع به، طفل يتيم لا ذنب له في شيء، يقولون إن العروس كانت وجه السعد؛ عمك يزداد ثراءً، تنبهت للكلام فجأة فقلت:

- سرقت كنزنا أو اتفقا على سرقته معاً! فقالت:

- كفاك سوء ظن! عمي يسرقنا؟ لا يمكن طبعاً، أما زيونية فربنا يهديها، تحاول مع عصام ليبيع لها بيت عائلته وتعرض أعلى سعر! فقلت ساخراً:

- أصيلة، تريد رد الجميل! فقالت:

- تقول سماح إن ممدوح يظن أن عمك يتاجر في الآثار وأن الرفاعية يساعدونه في التخلص من الرَّصد! فغرت فاهي دهشةً فأكملَت:

- وهذا سبب ثروته المفاجئة رغم مرتبه الحكومي الهزيل وتبذيره القديم الذي أضاع ميراثه من جدي رحمه الله! فضحكت ساخراً:

- إذا كان يسرق كنوز البلد كلها ألا يسرق إرثنا؟

أعود إلى بيتنا الفسيح بعد جلسة أنس مع عبودة، أسحب البوابة الحديدية فتنفتح في ثقل سخيف، أدلف إلى الداخل فتمزقني سياط التأنيب: لماذا تخليت عنه؟ أتسلق شجرة المانجو في خفة غريبة وكأني أحاول استكشاف موقع الحادث من جديد! يبدو الامتناع عن الطعام أفيد للصحة! يراوغني الزمن وتنهكني الأحداث؟ آه يا أبي، كيف انقض عليك الغادر؟ لا ألوم أحداً إلا نفسي؛ كان من الضروري أن أكون بجوارك فور مكالمتك ولا أنتظر نهاية الأسبوع؛ بل ولا أنتظر الصباح، أشعر وكأنني أرى ما جرى بكل تفاصيله وأعود أتذكر أنني تحت تأثير البيرة وحشيش القهوجي ثم لا أدري؛ أهو حُلم خيالي أم تتراءى لي الحقيقة؟ كالبلّورة السحرية العتيقة ومن خلال

سحابة رقيقة فوق غشاوة عينيَّ أرى! يقولون إن المداومة على أذكار الرفاعية وأورادهم تجعلك تكتشف ما حدث؛ بل وترى ما سيكون في المستقبل: الكشف! لا يمكن أن يكون ما أرى هو ما حدث؛ يعانقني فأغرس أسناني في رقبته! إنه المخدر ولا شك! أتخلص من أوهامي مرهقاً وأفتح الباب الخشبي العتيق؛ أدخل الصالون الذي نسميه المندرة، أفتح السندرة لتسقط عشرات الأعداد من الجرائد المتكومة التي كان والدي يداوم على قراءتها ويحتفظ بها، ما الذي جعلني أفتح تلك الجريدة تحديداً؟ أقرأ تفاصيل الجريمة وقد أحسست بألفة غريبة مع ملامح الصورة بالبزة الرسمية التي تحت العناوين: لواء بالجيش يقتل زوجته وطفلته ويهرب؛ مكافأة كبيرة لمن يدلي بمعلومات تساهم في الوصول إليه، أراجع الملامح من جديد، لا لحية هناك يُصبغ بياضها بلون الحنّاء الأحمر تنفيذاً لسُنَّة سيد الخلق، لكنه هو، ندّت مني صرخة هول تكذب عيني:

إنه هو، هو بلا شك: الشيخ الليثي!!

◉ ◉ ◉

الكفكفية!

من محب إلى قريب إلى مريد؛ تتتلمذ على شيخ ينقلك من مرحلة إلى التالية بحسب رضائه عنك وبحسب نشاطك في التقدم وطاعة أوامره طاعة عمياء! عمياء حقاً لا تعرف نقداً ولا مناقشة! ثم تتدرج في المراتب! لابد أن تكون نسخة مصغرة منه! لا طريق للصعود إلا ذلك! والشيوخ ليسوا سواءً، يحيطونك بالرعاية ويعلمونك الأذكار والأوراد وقواعد العزلة، على عكس ما تتوقع؛ لماذا كلما تقدمت في طريقهم تفاقمت غربة روحك وازداد بعدك عن يقين المؤمنين الصافي! بعضهم ترك صلاة الجماعة وهجر المساجد: صلاة السر أخشع وخالية من الرياء! وبعض عتاولتهم تركوا الصلاة أصلاً: وفيم هذه المظاهر التافهة وقد وصلنا إلى مرحلة اليقين؟! وبعض خواص الخواص- بزعمهم- يخوضون أكثر من ذلك وخاصة مع النساء المفتونات بقدراتهم الخارقة! وشيخي علاء ينصحني في زهو:

- دعك من الزهد المزعوم؛ اهتم بمظهرك أولاً، لابد أن تكون مكانتك عالية أمام الناس، اصنع مسافة بينك وبين العوام، للأولياء استعلاء وعزلة!

تصحب واحداً من كبار أقطابهم فلا يبخل عليك بالمِنن؛ وأولها: كيف تُخضع الحيات والأفاعي! العالم الغامض الذي تتصوره قبل دخولك غاية

المراد وقمة جبل العجائب، بينما هو في الحقيقة يا مسكين خدعة ساذجة في روضة أطفال لمَّا يدخلوا بعد المرحلة الابتدائية!

يقاس ثقل الصوفي- عندهم- بقدرته على خرق العادات، لكن هل هو (كرامة) كما يزعمون من الله لأوليائه؟ أم الأمر تدريب وألفاظ محفوظة مكررة؟ ثم شعوذة يتحصلون بها على عقول ثم قلوب ثم جيوب البسطاء! يأخذني علاء الرفاعي معه إلى أحد البيوت؛ يستقبله أهل الدار بحفاوة ويعرفونه على ضيوفهم ثم يجلسونه على مقعد وثير وسط كراسي خشبية متهالكة؛ يبدأ في الذكر ويتلُون خلفه بخشوع ثم يتمايلون في حركات تبدأ منتظمة هادئة ثم تتدرج نحو عشوائية مزعجة ويتناوبون القيام والقعود ويعلو الصوت مع حركات آمرة من كفه اليمنى! لا تملك إلا أن تتمايل وسط الجموع واحداً من القطيع المطيع! بحركة واحدة يتوقف الجميع ثم يقعدون وقد هدهم التعب، يدور الشاي والدخان ثم يطلبون من الشيخ إحدى الكرامات! تأخذني المفاجأة وأنتظر رد فعله! واثقاً يقف وسط الغرفة ثم يرفع يديه فتتموج جوانب العباءة الفاخرة ويقول بصوت عميق أرعبني:

- كرامات! وهل تتحملون؟ ارتعد كبير الدار وقال أحد ضيوفه بلهجة مستكينة:

- نعم نتحمل! أيقنت أننا لن نخرج سالمين! كيف ستتصرف يا شيخ علاء!؟

أصبح عمي أكبر تاجر للمساخيط! ثراء فاحش وملابس فاخرة وسيارة ثم سيارات حديثة وانتقال إلى قصر عالي الشرفات! أما زيونية فتقرض الفلاحين بالربا وتستولي على أراضيهم حين يعجزون عن السداد؛ ودوماً يفعلون! أسأل ممدوح:

- وكيف عرفت أن عمي يتاجر في الآثار؟ فيبتسم:

- الناس كلها تتكلم، أنت المنعزل عن الدنيا

- وما حكايته مع الرفاعية؟

- بعضهم يقول إنه يستعين بهم ليسيطروا على حراس القبور العتيقة من الأفاعي فلا يؤذونه، وبعضهم يزعم أنهم يعاهدون الجن الموكل بحفظ الكنوز (الرَّصد) بقدراتهم على تسخير القوى السفلية

- أكمل

- والبعض يقول إن عمك يهددهم أن يبلغ مأمور المركز عن خداعهم للناس فيرضخون لرغباته

- وماذا تظن أنت؟ فابتسم:

- ربما العكس هو الصحيح؛ يستعين الرفاعية بعمك حجازي ليُصرِّف لهم الآثار ويستغلون وجوده في الداخلية بحكم عمله ثم يقتسمون المكاسب.

رفع الشيخ علاء ذراعيه من جديد فاهتز زجاج النافذة المكسور خلفه ثم هتف بصوت كالطلقات المدوية:

- تذكروا أني حذرتكم؛ ليخرج من كان في قلبه ذرة ضعف! فوجئت ببعضهم يخرجون متخاذلين، يعاود التحذير فتخرج مجموعة أخرى وتزداد دهشتي، لم يبق في الغرفة معنا إلا ثلاثة أشخاص، ابتسم:

- تريدون كرامة؟ فقالوا:

- أرنا يا شيخ، فأمر:

- ليكتب كل منك سؤالاً في ورقة، يستفهمون فيرد بحسم:

- سؤالاً شخصياً يعرف إجابته وحده ثم تغلقون الأوراق بأنفسكم، مثلاً اسم أمك، اسم زوجتك، عدد أولادك، عمرك، مرض يزعجك أو عدو يؤذيك! يخرج صاحب البيت يجر أقدامه مذهولاً ليحضر الأوراق والأقلام ويعود، يكتبون أسئلتهم ويطوون الأوراق ويقدمونها له فيردها إليهم بسخرية:

- لا أحتاج إلى قراءتها، فقط ضعوا كل قلم في قلب الورقة التي كتبتم به عليها، ثم رفع صوته فتزلزلت جوانب الغرفة:

- تنبهوا! إياكم أن تخلطوا الأوراق والأقلام! ينفذون الأمر في ارتباك فيقول بثقة:

- والآن كما طويتم الأوراق بأيديكم فافتحوها بأيديكم! سقط قلبي وهم يفتحون الأوراق وإذا بهم يتعجبون:

- ما شاء الله! كل الإجابات صحيحة! في لمح البصر!

العوامر جن يسكن البيوت ويظهر للبشر على هيئة حيات! عليك أن تخبرها أنك لن تؤذيها إذا خرجَت من البيت بسلام ثم تمهلها ثلاثة أيام، قد تخرج الحية من البيت فتعرف أن أصلها من الجن الطيب المؤمن أو تظل تعيث في البيت فساداً ولا تغادره فتوقن أنها من الجن الشرير الكافر ولك بعد ذلك أن تقتلها! ولكن عليك أن تظل متماسكاً دون رعب لأنها تشم رائحة خوفك وتشعر بذبذبات قلبك المرتعش! رغم أنها لا تسمع، وإلا فعليك أن تلجأ إلى السادة الرفاعية.

بعد ذلك الموقف صحبت الشيخ علاء بضعة شهور؛ يدخل البيت أو الدوار الذي تختبئ الثعابين في شقوقه ثم يقول بصوت خاشع بالغ التأثير نحتته سنوات الخبرة والتمكن:

- أقسمت عليك يا ساكن هذا المكان؛ حية أو عقرباً أو ثعبان تجيئني طائراً- وأحياناً يقول ساجداً- خاضعاً بأمر الرحمن، تخالف؛ تموت بإذن الحي الذي لا يموت! فيخرج الثعبان زاحفاً بهدوء ليعطيه علاء الأمان بأنه لن يؤذيه، أيفهم الثعبان لغته أم أنها أعمال سحرية كفرية والعياذ بالله؟! المرحلة الثانية في التعامل مع حية متمردة رفضت أن تخرج من جحرها قد توضح الأمور! مِثل الأمشاطية ومثل آل طلبة يمتد تاريخ كُلّيتي - التي أحببتها فيما بعد- إلى حوالي مائتي عام! الطب البيطري- جامعة القاهرة؛ أنشأ بذرتها الأولى محمد

علي- وكأن كل المفاتيح تبدأ من عنده- لكي ينمي الثروة الحيوانية ويضمن تغذية الجيش! بدأ الأمر بإجبار من أبي لدرجة القهر والسباب:

- تلميذ خائب لا تعرف مصلحتك؛ وأي مستقبل أفضل من ذلك؟ بلد زراعية عامرة بالبهائم والمواشي، ستصبح مطلوباً في كل بيت وتفتتح صيدلية بيطرية أو مزرعة سمكية، تربت أمي على كتفي في حنان وتقول:

- لا تحزن؛ يريد مصلحتك

- ولكني أريد كلية الحقوق! فكرت قليلاً فتصورت الخير في ذلك الطريق؛ ربما- وقد كنت مخطئاً في ظنوني المتفائلة- عرَّفني ذلك أكثر على العالم المجهول الغامض؛ الأفاعي! لكن الأمر كان مفيداً بالفعل من زاوية أخرى! درست أسماء الأدوية وتفاصيل تركيب السموم والمضادات الحيوية وأفادني ذلك كثيراً في عملي بالصيدلية، وأضفت بعض الأدوية البيطرية في ركن منها، ولكن ظلت الغصة في حلقي لا تغادره؛ لماذا يجبرني على طريق لم أختره؟ لم أستطع أن أواجهه بما قرأت؛ هل طغت هيبته أم ضاعت جرأتي التي تغيب دوماً في حضرته؟ ذهبت إليه فوجدت باب داره أسطورية البساطة مفتوحاً كعادته وكأنه لا يخشى شيئاً من شرور الدنيا! نظر إليَّ الشيخ الليثي بابتسامة لوم رائقة ثم أراحني من جنوني بكلماته المعدودات وقد تلألأ وجهه بالنور:

- قرأتَ الصفحات ولكنك نسيت أن تعرف التاريخ! وقبل أن أنطق قام إلى خلوته وتركني أقتات حيرتي!

يأتيني عادل في الصيدلية بعد غيبة، نقضي سويعات من المرح والضحك؛ نظل حتى منتصف الليل فيقترح أن نذهب إلى بيتهم:

- أمي تنتظرك بما لذّ وطاب! أذهب معه فنجدها قد نامت ولكنها جهزت لنا صينية البسبوسة التي أذوب مع سمنها البلدي عشقاً، منذ طفولتي تستقبلني بأحضان صادقة المودة وتغدق عليّ بأصناف الحلوى، وزاد حنانها بعد وفاة أمي:

- يا كبدي؛ الولد قلبه سينفطر من البكاء! يسألني عن أخبار زميلنا القديم رفاعي الصغير، أجيب:

- تخرج من كلية الآداب منذ أشهر وينتظر التجنيد

- فرَّقتنا الجامعة؛ وكيف وجدت كليتك أيها البيطار؟ فضحكت:

- تسألني وقد بقي على تخرجي بضعة أشهر؟

- لتجيبني عن خبرة!

- جيدة والحمد لله، تفيدني في عمل الصيدلية، وكيف وجدت أنت التجارة؟ فابتسم:

- التجارة مكسب وخسارة، ضحكتُ فأضاف:

- لطيفة تناسب مواهبي! رسبت عامين وما زلت أكافح، أما زلت تزورهم؟

- الرفاعية؟ أحياناً؛ ليس كالأيام الخوالي، فقال:

- لا شيء يبقى على حاله!

تغضب بعض الثعابين فترفض الخروج من جحورها، فتأتي المرحلة التالية من تعامل الرفاعي المحترف معها، يقرأ علاء بصوت عالٍ وكأنها يريد أن يُسمع كائناتٍ أخرى:

- اللهم اطمس بطلسم بسم الله الرحمن الرحيم سر سويداء قلوب أعدائنا وأعدائك، واحجبنا بحُجُبك الكثيفة عن لحظات أبصارهم الضعيفة بسيوف "نمشاق" قهر سطوتك، ودق بقوتك أعناق الظلمة! فيهدأ الثعبان ويخر كأنه في وضعية السجود ويخرج من جحره ليتلقاه الرفاعي في كيس الخيش!

لا أصدق أن شيخي الليثي يؤذي نملة فضلاً عن أن يقتل! لن أسأله عن شيء؛ إن أراد حكى، وإن شاء سكت! لكنه الفضول يقتلني كل لحظة، حتى سألني وكأنه قرأ ما بعينيَّ:

- ولماذا تصر على نسبتي للإمام الليث؟ ألا تعرف ليثياً غيره؟ وهكذا كشفت المرحلة الثانية عن طلاسم ونمشاق وسويداء وحجب كثيفة! تشرق شمس الحقيقة فتبدد غيوم الظلام! حتى وإن تأخَّرَت فيكفي أنها تأتي حاملةً معها النور والشفاء! كنت أصغر أو أقل ذكاءً من أن أفكر في تلك المفارقة العجيبة: كيف يتفاوض الرفاعية مع الأعداء الظلمة بينما يدعون الله بإخلاص أن يدق أعناقهم!

وتأتي المرحلة الثالثة؛ نصائح علاء تتوالى: خذ حذرك، كم قتلت الكوبرا من رفاعية! الكوبرا متوحشة- على عكس أغلب الأفاعي- تهاجمك وإن لم تهاجمها! غادرة؛ تعطيها العهود أنك لن تؤذيها فتنتهز أول فرصة لتُرديك!

يقولون إن الملك كوبرا المصري ذا الحلقة السوداء حول رقبته هو أخطر أنواع الكوبرا في العالم! إذا لقيته فأنت في خطر داهم، لا ينفع مع بطش الكوبرا إلا عزيمة خاصة يسمونها (الكفكفية) وتحتاج إلى الصحبة والتلقين من شيخك لتعرف نصها ثم تحفظها وتتلوها! وما أدراك ما الكفكفية وأسرار حروف كافاتها!

نادراً ما أرى دعاء؛ الكلية ثم الصيدلية الأخرى؛ مسئولية كبيرة، أكان حباً حقيقياً أم انبهاراً بمظاهر الالتزام المُحبب أم طيش شباب؟ جرت تحت الجسر مياه كثيرة! كيف سأخطبها وأين سأذهب بعقود ياسمين أم أمل التي أشتريها كلما مررت بها؟ ما سر ابتسامة أمل الصغيرة؟ ابتسامة تسعدك قبل أن تسعدها! أهي براءة الطفولة أم طهارة من لم يتلوثوا بمعصية بعد!؟ يقولون: إذا أردت شيئاً بشدة فأخبر طفلاً أن يدعو الله لك ليتحقق!

يشاع أن ممدوح يعمل مع عمي في سرقة وتهريب الآثار؛ يظهر الثراء عليه رغم راتبه البسيط كمهندس زراعي، يتحول الموتوسيكل المتهالك إلى سيارة صغيرة ثم إلى سيارة فارهة، أواجهه؛ ينكر، أحذره من عاقبة المال الحرام فيسخر:

- وهل تأكل أنت من الحلال؟ كل الناس يعلمون ما تفعل في الصيدلية بعد منتصف الليل، وما تعطي لإسماعيل القهوجي وما تأخذ منه! دع ذلك الكلام الكبير لغيرك، أم تريد أن أخبر مصطفى؟ انصح نفسك أو قل لعمك أولاً! تعلو أصواتنا:

- لا شأن لك بي ولا بما أفعل

- وأنت كذلك لا شأن لك بما أفعل، تأتي سماح بأكواب الشاي فنسكت، تسأل:

- ماذا بكما؟ فأجيب:

- سوء تفاهم بسيط!

الكفكفية؛ تقرأ الفاتحة ثم تصلي على النبي بالصيغة الإبراهيمية (اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد) ثلاث مرات ثم تنشد وأنت تركز على كل كاف:

كفاك ربك كم يكفيه واكفه   كفكافها ككمين كان من كلكا
تكر كرّا ككر الكر في كبدي   تحكي مشكشكة كلت لك الكلكا
كفاك ما بي كفاك الكاف كربته   يا كوكباً كان يحكي كواكب الفلكا

ثم تقول: أقسمت عليك أيها الثعبان أو الحية بهذه الكافات وما بها من الكفايات وأسرارها التامة فلا تؤذني بأنفاسك السامة وأن تأتي أمامي خاضعاً خاشعاً وإلا كنت من العاصين لله رب العالمين!!

والعجيب- كما زعموا فيها بعد- أنه يمكن العمل بها بدون المفتاح ولا العهد، فيم إذن كانت سنوات التلقين وطول الدراسة؟ وبعد الانتهاء تقول (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) سبع مرات!!

تبادرني أمي حين أعود من الحضرة:

- يا حبيبي، كل هذا عرق؟ فأبتسم:

- الذكر يحلو بالتمايل! فتقول لائمةً:

- كُف عن ذلك، لا أرتاح لهم ولا لرقصاتهم! فأتعجب:

- ولماذا؟ فتجيب بوهن:

- لا أدري؛ قلبي مضطرب! أضحك:

- إذن لن أذهب إلى بيت الشيخ أحمد الرفاعي بعد ذلك، فتبتسم وقد فهمت لؤمي:

- الشيخ أحمد وولده طيبون، وطلبة دمه خفيف ويحبك وأمه صاحبتي، تعرف أنني أتكلم عن علاء ومنصور! فتعجبتُ:

- كنتِ تقولين إن منصور من أولياء الله الصالحين! فضحكت:

- وعرفت الآن أنه نصّاب!

يموت العمدة الفاسد الذي لم ينجب فتتبدل الأحوال، يتطلع الكثير إلى المنصب الأعلى والذي أصبح- فجأةً- بالانتخاب بديلاً عن الاختيار من المركز، أو هكذا زعموا!

◉ ◉ ◉

الرفاعي الأكبر

سألته:

- وهل تخطئ مثلنا؟

- كل ابن آدم خطّاء

- إلى درجة القتل؟

- ربما! فقلت:

- وماذا يدفعك لقتل أقرب الناس إليك؟ فابتسم:

- هل تسألني أنا؟

- ألا تعرف؟

- الأهم أن تعرف أنت، ضايقتني ألغازه فهتفت:

- لماذا لا تجيبني؟ هل تسعدك حيرتي؟ فابتسم:

- بل راحتك بغيتي! سأجيب، لكن عليك أن تسأل السؤال الصحيح!

- أيكون السؤال غير صحيح؟

- نعم، السؤال الصحيح شطر الطريق، فقلت:

- وما شطره الآخر؟ فقال:

-الجواب!

أعود إلى الأوراق المكدسة في السندرة، مع الجرائد أجد كشكولاً كبيراً اصفرت أوراقه بطول المُكث، أقرأ المكتوب من الخارج: أسرار وتطمينات لراجي عفو ربه الكريم العاطي عبد الرحمن خليل الأمشاطي؛ جد أمي، تآكلت الأطراف بفعل الزمن أو القوارض، كلام كثير حول تصنيف الناس بحسب أسمائهم؛ ترابي وناري ومائي وهوائي! ثم تصنيف آخر بحسب يوم المولد والأبراج بل وحسب اسم الأم! وفجأة تحول الكلام إلى سيرة الرفاعي!

قال الحافظ الذهبي في (سير أعلام النبلاء) الرفاعي هو الإمام القدوة العابد الزاهد شيخ العارفين أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة الرفاعي المغربي ثم البطائحي؛ قدم أبوه من المغرب وسكن البطائح بقرية أم عبيدة (بالعراق) وكان كثير الاستغفار عالي المقدار رقيق القلب غزير الإخلاص، توفي سنة ثمان وسبعين وخمس مائة في جمادى الأولى رحمه الله، تفقه قليلاً على مذهب الشافعي وكان إليه المنتهى في التواضع والقناعة ولين الكلمة والذل والانكسار والإزراء على نفسه وسلامة الباطن، ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء وقد كثر الزغل (التحريف والخداع) فيهم وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات وهذا لم يعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه فنعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

تمتلئ البلدة بالأعلام والرايات؛ الكل يرفع شعارات من يؤيده لخوض انتخابات العمودية! كان العمدة السابق لصاً ولا شك تربطه بالأفاعي صلة خفية؛ فأهل القرية يشيعون أنه وحده من ذكر أن الأفاعي قتلت حملاً مولوداً في دوّاره حين طلبت زيادة الإتاوة! يؤكد عمي حجازي صدق القصة ولكنه لم يرها بعينيه! بل يردد ما يقول الناس:

- قبل أن يتولى العمودية- للحق- كان من المدافعين عن القرية ضد هجمات الأفاعي!

إذن كان الرفاعي الأكبر رجلاً صالحاً ولم تُعرف البِدَعُ إلا في أتباعه بعد غزو المغول! أتعجب من أقواله المأثورة التي تشبه كلام شيخي الليثي:

- لا يحصل للعبد صفاء الصدر حتى لا يبقى فيه شيء من الخبث لا للعدو ولا للصديق ولا لأحد من خلق الله عز وجل.

كضوء الشمس ينعكس من مرآة تركز أشعتها في عينيك! تخطف بصرك منذ اللحظة الأولى بل قبل اللحظة الأولى! وحدها تدخل الصيدلية بهدوء وثقة:

- أنا نادية! أنظر مستفهماً فتكمل:

- نادية طلبة؛ بنت عم صديقك عادل! أرحب بارتباك ظاهر:

- أهلاً وسهلاً، تبتسم في محاولة لطيفة لتخفيف رعشتي:

- رأيتك معه مراراً. يا الله! كيف تخطئ عيني كل تلك الرشاقة والأناقة؟ أستعيد هدوئي قليلاً، تلفني الدهشة وأنا أتأمل بديع صنع الخلاق العظيم؛

ما هذا؟ عينان واسعتان لمّاعتان بين الأزرق والأخضر، ثغر دقيق باسم ينفرج عن صفين من لؤلؤ برّاق، شعر فاحم ناعم مربوط بإحكام قبل أن يتدلى ليصنع ذيل فرس مبهج ينسدل إلى منتصف ظهر مستقيم، قوام ممشوق لا عيب يجرؤ ليقترب منه، جسد رشيق مشدود فوق حذاء لا يقل طول كعبه عن خمسة عشر سنتيمتراً! زينة وجه بسيطة خطتها يد فنان متمكن، عطر أخاذ يخدرك قبل أن تفهم ما يحدث! تضحك من مرأى وجهي العجيب:

- ما لك؟

- رأيتني معه مراراً ولم ألاحظك؟ إذن أنا أعمى، تضحك من جديد ليزداد ارتباكي:

- كلك ذوق؛ ميرسيه! انتبهت فرفعت لها كرسياً من خلف لوح الزجاج السخيف الفاصل بيننا:

- بل قليل الذوق جداً، تفضلي بالجلوس

- لا لزوم، أريد بعض الشامبوهات وكريمات حماية الجلد؛ تعرف شمس المصيف! ما زلت مأخوذاً فقلت:

- تفضلي بانتقاء ما تريدين؛ الرَّف أمامك إلى اليسار، نظرت في حيرة ثم ابتسمت:

- بل تختار لي أنت! أكانت لحظات سعادة مؤقتة يقنصها المرء كما يحدث في مثل تلك المواقف؟ ترتدي بنطالاً أزرق وبلوزة لبنية تزينها ورود زرقاء

وخضراء تفتَّحت أمام عينيّ الآن! ذبت في خيال مدهش مع صوت حالم لأغنية رائعة، قلت لها بتحرج بالغ:

- واضح أن لديك حساً فنياً مرهفاً وخبرة في اختيار كل جميل؛ كيف أختار لكِ أنا؟ ضحكت فامتلأت الدنيا بهجة:

- أنت عبقري أيضاً؛ أدرس في كلية الفنون الجميلة!

- واضح! نزلَت إلى أسفل برشاقة لا عهد لي بمثلها مع أجساد النساء اللاتي يأتين عادةً فكدت أفقد الوعي! أخذت بعض علب الشامبو وحماية الشمس:

- يكفي هذا! من فضلك سآخذهم، انصرفت من أمامي لكنها لم تغادر! ظلت في مخيلتي صباح مساء! وبقيت أسبوعاً أردد أغنية منير- الجديدة وقتها- (بالحظ وبالصدف)!

ابتسَم:

- سل ما بدا لك

- من أنت؟

- واحد من عباد الله

- ولماذا تنتسب إلى الليثي؟

- قدوة وتذكرة! زادت حيرتي:

- الإمام الليث قدوة وفهمتها، أما التذكرة فخبرني عنها

- درسان من ذكرياتها؛ إياك أن تتاجر بدينك، وإياك أن تنخدع بالمظاهر!

- وكيف تتاجر بدينك؟ فقال:

- تفتي لمصلحة من يدفع!

- ومن الليثي الآخر؟

- زميل قديم؛ ظن الذئب حملاً، تعاهدا فوفَّى صديقي ثم استدار الذئب فقتله غدراً!

- ألك أعداء؟

- الشيطان وحزبه

- من أين أتيت؟

- من بلاد الله

- ولماذا جئت إلى هنا؟

- ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها، انتفضتُ لأول مرة في حضرته المهيبة:

- هل ما قرأته عنك صحيح؟ فابتسم:

- أنت من يتحدث بالألغاز الآن! ماذا قرأت؟ فهتفت:

- كنتَ ضابطاً كبيراً بالجيش وقتلتَ زوجتكَ وابنتك الوحيدة ثم هربت؟!

ازدادت ابتسامته إشراقاً وقال:

- ما رأيك أنت؟ سأعيد عليك سؤالك القديم، أيقتل الإنسان أقرب الناس إليه؟

- أنا من يسأل، أرجوك أجبني؛ أكاد أُجن من تأنيب الضمير! فابتسم في دهشة:

- وماذا يؤنب ضميرك؛ أنت؟

- أعرف الأمر منذ سنتين؛ كل ليلة أمتنع عن مواجهتك بدافع الحب والهيبة، كل ليلة أصارع نفسي كي لا أذهب وأبلغ عنك، كاد يضحك لأول مرة وهو يقول متعجباً:

- تريد أن تبلغ عني؟ افعل ما شئت!

- ليتني أستطيع

- نصحتك سابقاً؛ انتبه للتاريخ، فقلت بتوسل:

- عدتُ إلى الجريدة فوجدت التاريخ مطموساً

- طبعاً؛ لأنها قديمة، قصدت تاريخاً آخر! ولكن استفتِ قلبك، فأجبت واهناً:

- قلبي يؤكد أنك بريء ولكن ضميري ينهكني، فقال بحسم:

- لا، ليس هذا ما يعذب ضميرك

- وماذا يعذبه غيره؟ فابتسم:

- أنت! فهتفت:

- أنا؟ أخذتني رعدة فقلت: فدلني على طريق الخلاص

- كف عن البحث!

- عن ماذا؟ أرجوك بالتحديد
- عما يعذبك، فهتفت:
- فأرحني! ابتسم:
- يأمرنا الشرع بجواب الحكيم
- لا أفهم، فأجاب:
- الجواب الذي يفيد السائل لا الذي يزيد حيرته
- ارحمني
- سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن تغير شكل الأهلة مع دوران الزمن؛ يولد القمر هلالاً دقيقاً يكبر مع مرور الليالي ليصير بدراً ثم يضمر من جديد محاقاً ويعود في نهاية الرحلة كالعرجون القديم! فأجاب القرآن جواب الحكيم العليم بما ينفع السائلين "قل هي مواقيت للناس والحج" ولو أجابهم بتفاصيل علمية دقيقة لما فهموا ولزادت حيرتهم وفُتنوا في دينهم
- من قتل والدي؟ فشهق:
- أخيراً، هذا هو السؤال الصحيح، ألم نتعجب منذ قليل؛ هل يقتل الإنسان أقرب الناس إليه؟
- تقصد زيونية؟ أم عمي حجازي؟ فأجاب متأثراً:
- لن أزيد عذابك، والثأر لن يفيدك! فصرختُ:
- وهل تعرف الجواب؟
- محض عذاب، فهتفت في يأس وأنا أركع أمامه:
- أُقبِّل يديك! بل ورجليك!
- أستغفر الله، قد أجبتك بما ينفعك.

◉ ◉ ◉

الرحلات..

ألهث من المتعة وأرتقي مراتب الدهشة! تبحر بي في عالم عجيب؛ مزيج من الفن والعلم والثقافة؛ يسكرني سحر خمرها الفتّان! بعد رحلة روما التي تعرفها- بحكم عملها في أكاديمية الفنون- جيداً؛ رحلة المراكب في فينيسيا التي لا يسير أحد في جنباتها وقت احتفالهم بما يسمونه (الكرنفال) إلا بقناع يغطي وجهه! أسألها:

- ولماذا يرتدون تلك الأقنعة؟

- تقليد قديم؛ يقولون إنهم يريدون أن يشعروا بالمساواة؛ فخلف القناع لا تعرف الغني من الفقير ولا يظهر مستواك الاجتماعي! فقلت:

- فكرة لطيفة، تسألني ضاحكة:

- واضح إنك لست من هواة السفر، أبتسم:

- بالعكس؛ أحب السفر جداً وخصوصاً معكِ، فأكملَت:

- لكنك لست معتاداً عليه!

- لم أسافر خارج البلاد إلا معك!

- سافرتَ في رحلات داخلية؟

- في الجامعة كنت كثير السفر مع الزملاء؛ ضحكت:

- كم مرة؟

- لا أذكر العدد لكن في العام الواحد كانت لنا رحلتان ثابتتان: رحلة الشتاء إلى الأقصر وأسوان ورحلة الصيف إلى شاطئ البحر، تضحك فتضحك المباني والمراكب والأقنعة:

- رحلة الشتاء والصيف؟ يا سلام؟ إذن كانت رحلات ترفيهية فقط؟

- هي الحقيقة! أحادث نفسي: ولكنها نصف الحقيقة فقط! كنت مع استمتاعي بالرحلات والآثار والأغاني والنكات أبحث وراء الأفاعي في كل مكان! أتذكر مغامراتي مع "الطريشة" في أسوان ثم في سيناء! تهز كتفي فجأة:

- أين ذهبت؟

- لا شيء؛ فقط أفكر في وجهتنا القادمة، فضحكت:

- ألمانيا! لنتعرف على أقدم رواية في التاريخ! أكانت تقرأ أفكاري! سألتُ:

- من أي حضارة؟

- لا؛ هذه مفاجأة!

ضجيج لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً؛ مقدمات انتخابات أو ما يشبه الانتخابات! الكل- وأنا منهم- يصدقون أن الناس سيختارون لأنفسهم عمدة جديداً بالفعل، وكأن منصباً كذاك يُترك للعوام البسطاء يضعون فيه من يشاؤون ويمنعون منه من يشاؤون! لم يبدُ عمدة بلدتنا في أي وقت رجلاً حقيقياً واضح الملامح بقدر ما كان رمزاً خفياً يعبر عن زمنه؛ وكم تحمل التحوّلات

من تناقضات! في وقت ناصر كانوا يرفعون شعارات الاشتراكية ويلتقطون الصور مع الفلاحين وهم يحتفلون معهم بالفدادين الخمسة ويعتلون منابر الاتحاد الاشتراكي ويهاجمون أمريكا وإسرائيل ويجاهرون بمحبة المعسكر السوفييتي بل ويسافرون إلى دوله في رحلات "تثقيفية" منتظمة! وعند النكسة أخرجوا أغلب أهالي القرية بالترغيب والترهيب يهتفون: لا تتنحى.. لا تتنحى! ثم جاء عصر السادات وسرعان ما انقلبت مبادئ الاشتراكية إلى الانفتاح والرأسمالية فبدلت حياة الناس إلى سعار محموم يبحث عن قيمة واحدة: المال! وانقلبت معاداة الصهاينة والأمريكان إلى سماحة قهرية غير مفهومة تصالح أعداء الأمس وتغري بالسلام معهم! ثم جاء عصر مبارك المستقر الهادئ- أو الراكد الجامد- سنين طويلة، والعُمَد جميعاً يشتركون في صفة واحدة تزيد وطأتها تدريجياً: نهب خيرات البلد!

لا تكفي جلسة عابرة؛ أرفع الدفتر وأواصل القراءة مع دخان سيجاراتي المتتابعة (شمَّر للطاعة وجَدَّ في العبادة حتى صار عالماً ربانيا يرجع مشايخه إليه ويتأدب معلموه بين يديه، وأجازه أئمة عصره وهو في العشرين من عمره إجازة عامة بكل علوم الشريعة وأعظموا شأنه ولقبوه بـ "أبي العِلمين" بكسر العين لا بفتحها، أي عِلم الظاهر والباطن.

إسماعيل القهوجي هو نجم تلك الليالي، كأنما تجتمع بلدنا عنده كل ليلة يتناقشون ويخوضون في سعادة؛ من ستختار؟

الأفضل هو الشباب الأصغر سناً والأكثر حماساً وجرأة على التغيير ووأد الفساد والمفسدين

بل لابد من حكمة الكبار تروِّض اندفاع الشباب

بل من ظل وفياُ لمبادئه لم يغير كلامه ومواقفه ليحظى بالقرب من العمدة القديم وحاشيته

بل أحد المتدينين الذين يصلون لله في المساجد وينادون بالعودة إلى الشريعة وتحكيمها

بل من يبني بلادنا ويعمرها ولا يسرقنا مثل سابقيه

بل من أقارب العمدة السابق الذين نهبوا حتى التخمة فلن يسرقونا من جديد!

بل من رجال الأمن يعيد لبلدتنا الاستقرار ولا يدخلنا متاهات لا نعرف مآلاتها

بل نختاره من رجال القضاء المشهود لهم بالنزاهة يعيد لنا حقوقنا

كنت سعيداً بسماع كل تلك الحوارات؛ أخيراً أصبح من حق الناس الكلام والاختيار

(واعلم يا من وفقه الله إلى فتح هذه الصفحات أن لأئمة الإيمان مراتب لا تخلو منها الدنيا أبداً؛ إذا توفيّ أحدهم جاء من بعده خليفة له في مكانه، فالقطب في زمانه بدلٌ من أبي بكر في خلافته لرسول الله، وهو إمام الأثافي

الثلاثة الذين هم أبدال الثلاثة الخلفاء الراشدين بعده، ثم يأتي الأوتاد السبعة أبدال بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم الأبدال الأربعون وبعدهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أبدال البدريين من الصحابة، وأضاف بعض أهل الطريقة تفصيلات تتعلق بمراتب الأولياء في الصعود هي "الأخيار والأبدال والأبرار والأوتاد ثم النجباء والنقباء والقطب والغوث"

يبتسم الشيخ- وهو يسقي نبتةً- لائماً:

- لا تبحث عما يشقيك، فقلت واهناً:

- لن تتركني نفسي حتى أظفر بالحقيقة كاملة، ابتسم وتلا الآية التي يكررها كثيراً:

- وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً، فصرخت:

- ولكنك تعلم حقيقة ما جرى، فابتسم:

- ليس كل ما يُعرف يُقال، فهتفت في محاولة لاستفزازه:

- الآن فهمت؛ أنت لا تعلم شيئاً، فابتسم:

- هو ذاك؛ قالوا "العلم ثلاثة أجزاء؛ فإذا تعلمت الثلث الأول اغتررت، وإذا أخذت الثلث الثاني تواضعت، أما حين تُحصِّل الثلث الأخير فتوقن أنك لا تعلم شيئاً"

ماذا يجري عند المقابر؟ كيف يعاملون الرَّصد وكيف تتركهم أفاعي الحراسة المتوحشة، تحضر سماح الشاي وتضع شيماء في حجر أبيها، أسأل ممدوح فيشيح بوجهه:

- مال حرام يا مولانا لا شأن لك به!

- تسخر مني؟ أريد أن أعرف ما يحدث، يضحك:

- وماذا تريد مني؟ هل أذهب إلى عمك وأستأذنه في حضورك معنا؟

- بل سأذهب خلفكم متخفياً ولن يرى وجهي، أخبرني فقط متى ستذهبون؟

- أنت متأثر بأفلام السينما، الأمر أشد خطورة من لهو الأطفال، أرجوه أن يجد طريقة فيقول نافد الصبر:

- اذهب أنت إلى عمك واعرض عليه أن ترافقه أو تعمل معه، لن يردك خائباً فقد استجاب لطلبي وفتح الله لنا أبواب الرزق من وسع!

- وما دورك أنت؟

- لا أستطيع أن أنطق بحرف!

ما زلت أقلب الصفحات: كان الرفاعي متجرداً من الدنيا فلم يدخر أموالها، بل كان لا يجمع بين لبس قميص وقميص لا في صيف ولا في شتاء، مع أن ريع أملاكه كان أكثر من ريع الأمراء، وكان ينفقه كله في سبيل الله على الفقراء والسالكين والواردين إليه، وكان يقول: الزهد أساس الأحوال

المُرضية والمقامات السَّنية، ومن أشهر أقواله: طريقي دين بلا بدعة، وعمل بلا كسل، ونية بلا فساد، وصدق بلا كذب، وحال بلا رياء.

تعبث بي الأحلام بعد ليلة عاصفة من الحشيش والخمر، أرى زيونية في ثوب ناري أحمر تحمل موسى وتضعه أمامي ثم تشير إلى أشجار المانجو وتدور حول سريري ثم تقول: ابحث في السندرة عن كنزك! أقوم لأحتضن أخي الرضيع فلا أجده، أتلفت فلا أجدها لأسقط فوق فراشي متعجباً: رؤيا أم أضغاث أحلام؟

أصابني نفور مفاجئ عندما حضرت حفل " ليلة الحنّاء" للعروس صفاء- أخت دعاء الكبرى- وجدتُ زوجها المستقبلي يخلع قميصه ويقف نصف عارٍ ليدخلوا أسياخاً ملتهبة في صدغه وعلى ظهره ويربطونها بالحبال! كدت أصرخ من هول المشهد متعجباً من ثبات الرجل الذي لم يتأوه حتى أخرجوا الأسياخ وقد تركت أثرها الناري على ظهره وحول فمه! أسأل الواقف متحمساً بجواري- صديقي الرفاعي الأصغر:

- ما هذا؟ فيجيب بلا مبالاة:

- طقوس الفرح! أتعجب:

- ومن أين أتيتم بهذه التخاريف؟ فينظر واجماً:

- هي عادات توارثناها تثبت قوة الرجل والتزامه بتقاليد الرفاعية وتدفع عن العروسين شر السحر والحسد ولا ضرر منها! أتعجب؛ وهل كل من يتقدم

لبناتكم يُجبر على ممارسة تلك الطقوس المفزعة؟ أترك الحفل يظلني غم عميق؛ هل اختياري لعروس المستقبل صحيح؟ وأعود إلى صفحاتي المتآكلة...

◉ ◉ ◉

الصوفي!

أواصل القراءة "ورغم عظيم احترامي للسادة الرفاعية فقد كان بعض كبارهم في غاية الأنانية والخيانة؛ يعاهدون الأفاعي خلف ظهورنا، وعندما تغدر الثعابين بهم يعودون إلى الناس بالشكوى والبكاء! لا يعلم الغيب إلا الله وربما انتهوا عن غيهم، لكن اللعنة تصيب واحداً من أحفادي لما ارتكبه من جرائم؛ أمشاطي لكنه لا يحمل لقب العائلة؛ يتحول في ليلة واحدة ويؤذن تغيره بالخراب" يا ترى من يقصد؟ وإلام يتحول؟ إلى رفاعي مثلاً؟ أم هي مجرد تنبؤات لا علاقة لها بالحقيقة؟

إلى ألمانيا حيث جزيرة كاملة للثقافة والفن تُسمى جزيرة المتاحف؛ تجيد نادية الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية! تترجم لي كل المكتوب وما يقولون فهم لا يتحدثون بلغة أخرى! جولة ماتعة بين التحف والآثار من كل العصور وكافة الثقافات، في إحدى القاعات نجد شاشة كبيرة وآلة عرض سينمائي؛ تقول بحماس:

- أفلام تسجيلية ثقافية، تجلسني بجوارها وأنا مأخوذ بالجمال والنظافة، أُذكِّرها:

- قلتِ ستخبرينني عن أقدم رواية في التاريخ! فضحكت:

- الآن؛ انظر، ومضت تترجم ما نراه:

- أقدم كتاب في التاريخ هو كتاب الموتى عند المصريين القدماء، واختلف المؤرخون حول أقدم رواية وردت إلينا كاملة، فبعضهم يقول إنها رواية (التحوُّلات) وتعرف أيضاً باسم (الحمار الذهبي) وكتبها روائي أمازيغي من الجزائر يُدعى لوكيوس أفولاي في القرن الثاني للميلاد! فتعجبتُ:

- الجزائر؟!

تتوالى الصور وتعليقات المذيع فتقول:

- هذه بعض ترجمات للرواية ولكن أصلها مفقود، يعتبرها العلماء أقدم كتاب من تأليف البشر ينطبق عليه وصف الرواية وشروطها من الناحية الفنية، وتدور حول شاب يحب السحر ويريد أن يتحول إلى طائر ولكنه يتحول بالخطأ إلى حمار ذهبي اللون يحاول العودة إلى صورته البشرية فيخوض أهوالاً ويسرقه اللصوص ويتنقل بين الأماكن والمالكين حتى يأكل إكليلاً من الورود فيرجع إلى صورته البشرية، أنظر متعجباً فتقول:

- ما لك؟ أبتسم:

- كان حلمي القديم أن أتحول إلى طائر يرفرف بجناحيه تاركاً دنيا الهموم إلى أعلى سماوات الأحلام، فضحكت:

- ثُم؟

- كان أبي يناديني دوماً: يا حمار!

- لا تقل ذلك أرجوك؛ ها أنت ذا تجوب الدنيا وتحلق كل يوم في سماء جديدة! قبّلتُ يدها فسحبتها بسرعة وضحكت:

- ولكن بعض المؤرخين يعتبرون الرواية الأولى أقدم من ذلك بكثير

- قبل الميلاد؟

- نعم؛ بردية "الملاح التائه" المحفوظة في متحف بطرسبرج بروسيا وهي مصرية قديمة، فهتفت مبتهجاً:

- تحيا مصر، وهل سنراها هناك؟ فضحكت:

- حاولت الحصول على التأشيرة دون جدوى، لعن الله السياسة! تتوالى الصور من المخطوطة فتشرح القصة والرسوم؛ يفاجئني مرأى رسم لثعبان ضخم، أهتز لحظة فتضحك:

- سأشرح لك؛ لا تخف، فقلت صادقاً:

- لم أخف، ولكن الأفاعي تطاردني.. حتى هنا!

تصيبني الدهشة ممزوجة بالرعب: يضعون السيوف الحادة على أعناقهم ثم يقوم علاء بالمشي فوق تلك السيوف فلا تقطع الرقاب! ثم يضعونها على ألسنتهم ويمسكون السيف ويسير الشيخ مرةً أخرى على السيوف فلا يصيب ألسنتهم سوء! تلفت دهشتي نظر الرجل المتأنق ذي الوجه المألوف الهائم في ملكوته عن يميني فيقول وهو يتمايل طرباً مع دقات الطبول:

- هذه طقوس الرفاعية، وقليلاً ما تفعلها الطرق الأخرى، أتعجب:

- وهل لك علم بالطرق الأخرى؟ فيرد:

- سائح في حب الله! خبرة، أنا برهامي لكني أحضر مع كل الطرق لأستزيد من جرعات العشق الإلهي!

- وكيف لا يُجرحون أو ينزفون؟ فيقول وهو ينفث دخان سيجارة فاخرة:

- بركات الرفاعي تحميهم، وإن حدث ووقع جرح فإنه لا ينزف دماً، يفتح العلبة المستوردة ويناولني سيجارة، أسأله:

- هل أعرفك من قبل؟ فيردّ لاهثاً:

- كلنا إخوة؛ في الله ولله وبالله! سألته:

- ما اسمك؟ فمد يده يصافحني:

- أخوك رائف عبودة، فهتفت:

- الصحفي المعروف؟

- المهم أن تكون معروفاً هناك! وأشار إلى السماء!

سألت شيخي الليثي فقال:

- وإن سار أحدهم على الماء أو طار في الهواء أو قُطعت رأسه بالمنشار ثم عادت فوق عنقه وتمثل بشراً سوياً فإنه لا يكون من الأولياء إلا أن تجد جميع أحواله مطابقة للسُّنة!

تواصل الترجمة: أقدم قصة مصرية، بل أقدم نص إنساني لمغامرة بحرية محفوظة في التاريخ؛ والتي كتبها بالخط الهيراطيقي المصري القديم الكاتب

ذو الأصابع الماهرة (إيمينا ابن إيمين) ويقال إن قصص السندباد البحري الشهيرة مقتبسة منها!

تحكي القصة عن حملة غير ناجحة لأحد المسئولين وبعد عودته لم يجد ما يقوله للملك من أعذار عن فشله فيشجعه أحد البحارة من خلال قصة يزعم أنها حدثت له ليقنعه أن الخسارة يمكن أن تتحول إلى نصر رغم الظروف فيوصيه أن يجيب بلا تلعثم ويستخدم بلاغته لينجو من عقوبة الملك ويمضي في قصته التي تحكي أن البحارة تعرضوا لعاصفة هائلة وسط البحر فارتطم الموج العاتي بالقارب فتحطم، ولم ينجُ إلا الملاح الذي وجد نفسه فوق جزيرة مليئة بأنواع الطعام والفواكه، يحكي (رأيت ثعباناً ضخماً يأتي نحوي) فكلّمهُ الثعبان (من الذي جلبك إلى هنا؟) وكرر السؤال مرات (إذا تأخرت في الرد على سؤالي فسأجعلك رماداً) كنت أمامه أسمعه إلا أني لم أكن واعيا ثم وضعني في فمه وأخذني إلى المكان الذي يعيش فيه فأجلسني دون أن يمسني بأذى وقال: كيف أتيت إلى هنا؟ فأجبته (كنت في مهمة إلى بلاد المناجم من أجل جلالة الملك و..) وأخبره بقصته فقال: لا تخف ولا يشحب وجهك لأنك وصلت إليّ، أتعلم أن الله هو الذي كتب حياتك وجاء بك إلى هذه الجزيرة (جزيرة الكا) المليئة بالأشياء الرائعة، ستمضي أربعة أشهر، وسيأتي قارب من وطنك وعلى متنه بحارة تعرفهم، ثم قال: كنت أعيش هنا مع أقاربي، بلغ عددنا خمسة وسبعون ثعباناً ومعهم ابنتي الصغيرة التي حصلت

عليها بعد صلواتي، ثم هبط نجم من السماء فأمسكت بهم النيران ولم أكن معهم، قتلني الحزن من أجلهم بعدما وجدتهم كومة من الجثث، اطمئن؛ سوف تصل إلى وطنك وتكون بين إخوتك، قمت متكئاً أمامه ثم قلت له: سوف أقص ما حدث وأخبر الملك عنك وأجعله يرسل إليك الهدايا الفاخرة وسيتم الدعاء لك أمام الحاشية وسأذبح قرباناً من أجلك وأرسل إليك السفن محملة ببضائع (كيمِت)- اسم مصر القديمة- ضحك الثعبان: عندما تترك هذه الجزيرة لن تراها مرة أخرى فسوف تغمرها المياه! وجاءت السفينة كما تنبأ الثعبان فذهبتُ وتسلقت شجرة عالية واستطعت التعرف على ركابها وعندما رجعت لأخبره وجدته يعلم مسبقاً وقال لي: وداعاً، اذهب في صحة إلى وطنك، اجعل سمعتي طيبة في بلادك، هذا كل ما أطلبه منك، فانحنيت أشكره فأعطاني كثيراً من الهدايا وقال لي: سوف تحتضن أطفالك وتزدهر في وطنك وتُدفن هناك، ذهبت إلى الشاطئ وحييت طاقم السفينة ثم حييت سيد الجزيرة، ثم عادوا مبحرين إلى الوطن حتى وصل إلى الملك الذي عينه تابعاً له وأهداه مائتي خادم، لكن أحد المسئولين قال له: لا تتباه كثيراً، فما الفائدة من إعطاء الماء إلى الطائر صبيحة يوم ذبحه؟ يقصد أنه في الغالب لن ينجو بفعلته وسيعاقبه الملك مهما قال من أعذار! تذكرت شيخي الليثي فتبسمتُ، وقالت نادية:

- كم تريد من الأطفال؟

أقلب الأوراق المهترئة مواصلاً القراءة: وأصل الكلمة على عدة أقوال؛ منها:

أنه مشتق من الصوفة، لأن الصوفي مع الله كقطعة الصوف لاستسلامه لله تعالى في كل أحواله.

أنه من الصِّفة، إذ أن التصوف هو اتصاف بمحاسن الأخلاق.

أنه من الصُفَّة، لأن صاحبه تابعٌ لأهل الصُفَّة وهم مجموعة من الصحابة الفقراء كانوا يقيمون في المسجد النبوي ويعطيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصدقات والزكاة طعامهم ولباسهم.

أنه من الصَّف، فهم دوماً في الصف الأول بقلوبهم وبحضورهم مع الله وتسابُقهِم في الطاعات.

أنه من الصوف، لأنهم كانوا يؤثرون لبس الصوف الخشن للتقشف والزهد.

أنه من الصفاء، فلفظة «صوفي» على وزن «عوفي» أي: عافاه الله، وقال الشاعر:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا   وظنه البعض مشتقاً من الصوفِ
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى   صفا فصوفي حتى سُمّي الصوفي

في الصيدلية ترى كل أصناف البشر؛ تكتشف بعد قليل أن عليك توفير كل المستلزمات، بمعنى كل شيء! فالمستشفى الحكومي خاوٍ من الأدوية والشاش والقطن والأربطة والجبس بل ولا توجد حتى خيوط وإبر الجراحة

ولا محاليل وأجهزة الوريد! بعد منتصف الليل يأتي أصحاب المزاج؛ بدءاً من أدوية الكحة وحتى أقراص الترامادول؛ في البداية تتمنع، يهددونك، ترضخ ثم تجد الأمر جد يسير وعامر بالمكاسب! ثم يكتشفك القهوجي؛ تجرب بضاعته فتنتشي؛ يعقد الصفقة: عقاقيرك المُجدولة في مقابل مخدراته الماتعة! وتبدأ الرحلة فيصبح أغلب زبائنك في الصيدلية رفاقاً لك في ليالي القهوجي!

قال ابن تيمية: ومنهم أصحاب الحيل، وقد استخرت الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخل أنا وهم، ومن احترق فعليه لعنة الله وكان مغلوباً، وذلك بعد أن نغسل جسومنا بمزيلات قوية كالخل والماء الحار، لأنهم يطلون جسومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع وباطن قشر النارنج وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم، وأنا لا أطلي جلدي بشيء فإذا اغتسلت أنا وهم بالمُزيلات بطلت الحيلة وظهر الحق ودعوتهم إلى المناظرة أمام الأمير: فأنا أصنع مثل ما تصنعون ومن احترق فهو مغلوب، ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار، فأخذ كبيرهم يظهر القدرة على ذلك فقال: أنا وأنت نُلف في الحصير بعد أن تُطلى جسومنا بالكبريت، فقلت: فقم، وأخذت أكرر عليه في القيام إلى ذلك، فمد يده كأنه يريد خلع القميص، فقلت: لا حتى تغتسل في الماء الحار والخل، فأراد التهرب فقال: من كان يحب الأمير فليحضر خشباً أو حزمة حطب، فقلت: هذا تطويل وتفريق للجمع، ولا يحصل به مقصود، بل قنديل يوقد وأدخل إصبعي وإصبعك

فيه بعد الغسل، ومن احترقت إصبعه فعليه لعنة الله وهو مغلوب، فلما قلت ذلك تغير وذل واصفرّ وجهه.

صارحت عمي برغبتي في الذهاب معه إلى مقبرة فتعجب:

- وما لك بها؟ فقلت:

- أريد أن أعمل معك، فضحك وقال:

- سأعطيك كل ما تطلب، لكنك لا تصلح للعمل معنا!

- فدعني أحضر معكم ولو مرة واحدة ثم أقرر بنفسي

- الأمر جدٌ لا هزل فيه، لمصلحتك؛ خذ ما شئت من مالي، لكن مقابر وآثار؛ لا! انصرفت وأنا أواصل البصق على الأرض:

- لا يلزمني مالك.. الحرام!

تصيبني رعشة منتصف كل شهر قمري! رحلة الشتاء إلى الجنوب الدافئ؛ الأقصر وأسوان وآثارهما وبيوت النوبة بنقوش جدرانها رائعة الجمال، والأمان فترة بيات الأفاعي الشتوي، ورحلة الصيف إلى الشمال حيث الشواطئ والرمال، ثم صارت رحلة الشتاء إلى سيناء حيث الطريشة المتوحشة، أتذكر رحلتي الأولى إلى بقايا ياميت ثم إلى رفح المصرية.

رأيت الجندي الصهيوني واقفاً على برج المراقبة يشير إلينا بإصبعه الأوسط إشارات بذيئة وقد تصاعدت من الجهة الأخرى للحواجز والأسلاك الشائكة سحبُ دخان كثيف جراء قصف عنيف من عصابات المغتصِبين

على رفح الفلسطينية! ترن في أذني عبارة الرئيس المؤمن: هناك ضرورات نُظُم وهناك خيارات أمة! أضحك ساخراً: وهل اختارت الأمة؟ ومتى اختارت أي شيء؟ والله لو كانت لتختار ما اختارت أن تصالح القتلة الغادرين، وهل اختارت أمي موعد انسحابها! الأحداث قدر مقدور، لكن رحيل أمي كان بالضبط يوم الذكرى العاشرة لزيارة العار؛ ١٩ نوفمبر!

أواصل قراءة كلام ابن تيمية: أما النوع الثاني منهم فهم أصحاب الأحوال الشيطانية وهم من جنس السحرة، تتنزل عليهم الشياطين ومردة الجن فتظهر منهم العجائب، وكان كثير من الشيوخ الذين حصل لهم هذه الخوارق إذا كذب بها من لم يعرفها وقال إنكم تفعلون هذا بطريق الحيلة كما يدخل النار بقشور النارنج ودهن الضفادع وغير ذلك من الحيل فيعجب هؤلاء المشايخ ويقولون نحن والله لا نعرف شيئاً من هذه الحيل فلما ذكر لهم الخبير إنكم لصادقون في ذلك ولكن هذه الأحوال شيطانية أقروا بذلك وتاب منهم من تاب الله عليه لما تبين لهم الحق أنها من الشياطين لما رأوا انها تحصل بمثل البدع المذمومة في الشرع وعند المعاصي لله فلا تحصل عند ما يحبه الله ورسوله من العبادات الشرعية فعلموا انها حينئذ من مخارق الشيطان لأتباعه لا من كرامات الرحمن لأوليائه.

أستيقظ من نومي فجأة قبل الفجر على صوت حاد لامرأة تصرخ: أنجدونا، أنقذوها، أين الرجال؟ أغيثونا يا عالَم يا هوه، أسرعت نحو مصدر الصوت لأجد صديقتي القديمة (أم أمل) تصرخ لأن وحيدتها اليتيمة الصماء (أمل) قد دخلت إلى بيت من بيوت الثعابين وحول أم أمل مجموعة من جاراتها يهدئن من روعها ولكنها لا تتوقف عن الصراخ!

◉ ◉ ◉

طريشة!

آه من أشجار المانجو ومن أعشاش الحمام! كيف تكثر الأفاعي في أماكن الجمال والبراءة؟!

سرعان ما صار عبودة صديقاً لي؛ نتبادل القفشات والسجائر ونتفق على الذهاب إلى الحضرة في مواعيد منتظمة، يتعامل معي بتواضع لا أظنه مألوفاً عند أمثاله من كبار الكتاب، سألته عن اللواء الذي وجدتُ صورته في الجريدة وعن قصة هروبه بعد قتله لزوجه وابنته فقال:

- يهمك أمره؟ فقلت:

- جداً

- أذكر شيئاً مثل ذلك حدث قبل سنوات، سأراجع وأرد عليك.

ويومها سألت الليثي مباشرةً:

- وهل قتلتَ من قبل؟ أجاب:

- ما قتَلتُ ولكني قاتلت

- قاتلتَ ولكنك لم تقتُل؟ تحيرني من جديد، وما الفرق؟

- الفرق كبير؛ شرف الجندي أن يقاتِل لا أن يقتُل، القتال فيه طرفان يقتتلان، أنت والعدو! الشجاعة ألَّا تقتا الا مسلحاً م الأعداء يريد قتلك

واغتصاب أرضك وعِرضك، فإذا ألقى السلاح واستسلم صار أسيرك وله كل الحقوق، أما العزل والمدنيون فلا يجوز قتلهم، فسألته:

- والقتل؟ فقال:

- أن تقتل من لا يحاول قتلك؛ كعدو ألقى سلاحه، أو أعزلاً، أستذكِي من جديد:

- ولم تقتل مدنيين؟

- لم يحدث قَطّ

- ولا نساء؟ فابتسم:

- ولا أطفال!

- ولِمَ جئت إلى بلدتنا بالذات؟

- وراء عدوي وعدوك! اهتززت طرباً أن يجيبني هكذا لأول مرة دون ألغاز:

- ومن هو؟

- زيونية! سألته دهشاً:

- وما علاقتك بها؟

- ثأر قديم؛ أطاردها وأتباعها الأفاعي منذ وعيت شرها، لكل زمن وفي كل مكان زيونيته! هي أصل الداء وسيدة الأفاعي! قلت:

- وماذا فعلتَ؟

- سافرت في أرجاء الدنيا أفهم وأتعلم؛ وتتبعت زيونية حتى وصلت بلدكم، وتأكدت أن الأفاعي قد تعاهدت معها لتدميركم، فقلت:

- والرفاعية؟ فابتسم:

- مساكين يظنون أنفسهم أهلاً لترويض الأفاعي ولا يرون الحقيقة التي تتكرر أمام أعينهم كل مرة! فقلت:

- وما هي؟ فأشرق وجهه:

- الأفاعي تستغل الرفاعية؛ ثم تغدر بهم وتلدغهم من الجحر نفسه مرات تلو مرات!

- إذن تستبعد الخيانة؟ فابتسم:

- مِن الرفاعية؟ للأمر تفصيل

- أخبرني أرجوك

- أغلبهم يكرهون زيونية كما أكرهها؛ لكنهم يخدمونها، فقلت:

- لغز جديد؟! فرد:

- يخدمونها بخيبتهم وضعفهم، فهتفت:

- وبعهودهم مع الأفاعي!

- ها قد فهمتَ، سأضحِكُك، فقلت:

- لم تُضحكني قبلاً، فردَّ:

- تقول الطرفة؛ قبيل معاهدات التصالح مع العدو تكون الخيانة وجهة نظر، فابتسمت:

- وبعدها، فقال:

- تصبح الخيانة طريق الصعود (الوحيد)! فقلت:

- ولكنه ضحك كالبكا! فحدثني عن أنواع الثعابين في مصر

- الأغلب منها طيبة ليست سامة مثل الخضيري في المناطق الزراعية وأبو السيور في الصحراء والبسباس في سيناء، تذكرت أبي فسألته:

- والسامّة؟ فأجاب:

- مثل الكوبرا والقرعاء ولكن أخطرها وأغدرها: الطريشة! ذات القرنين، سألته:

- وهل يستطيع الرفاعية ترويضها؟ فأجاب:

- مثل زيونية؛ غادرة لا تفي بعهد، ولا تجدي معها كل أنواع العزائم، فهتفت:

- ولا الكفكفية؟

- ولا الكفكفية!

- وهل ستقتل زيونية؟ فابتسم:

- وأين هي؟

- في قصر عمي حجازي

- متأكد؟

- ربما تكون في قصرها الجديد؛ الذي اغتصبته من عائلة الشامي، فابتسم وقال:

- للأفكار أجنحة لا توقفها الأسوار! لابد من وعي، إذا استيقظ الناس صار التخلص من زيونية- أينما كانت- يسيراً، تماديتُ:

- إذن ستجمع الأنصار والمريدين حولك ثم.. فقاطعني بإشارة من باطن كفه:

- لا يهمني إلا أنت!

في جزيرة المتاحف متحف عن الحياة البرية الطبيعية؛ وفيه قسم كامل عن الأفاعي! ندخل وتترجم نادية لي كل ما كُتب على الأقفاص الزجاجية؛ أعرف بعضها عن ظهر قلب، جاؤوا بأنواعها من كل الدنيا؛ هذه العمياء الصغيرة تسمى الحفارة وتعيش أغلب حياتها تحفر في باطن الأرض، كنت في قمة التركيز وهي لا تدري أنها تقوم بتعريفي بواحد من ألد أعدائي:

- أما هذا الضخم فيسمونه العصّار؛ يصل وزنه إلى مئة كيلوجرام وطوله إلى سبعة أمتار! يعيش في المستنقعات الأمريكية، وهو في غاية الخطورة؛ يلتف حول ضحيته بنعومة، يعصرها بعضلاته القوية؛ تختنق وتموت ثم يلتهمها؛ يمكنه أن يبتلع إنساناً أو ثوراً!

أشد ما يخيفني أن يكتشف مصطفى أني أتاجر في الأدوية الممنوعة! أخفي كل حساباتها عنه، لن يرضى بمكسب حرام ولو كان أضعاف الحلال، والجهد كله مني أنا! أكان حرصاً على شعوره أم لتجنب الفضيحة؟ ربما لا هذا ولا ذاك! فرحت بالمال- الذي يضيع أكثر منه في اللغو والحشيش- وخشيت أن أفقده فحاولت إخفاء الحقيقة عن الجميع، ولكن حتى متى؟

رأيتها في رحلات الشتاء والصيف؛ الطريشة ذات القرنين المرعبين فوق عينيها! نوعان: الأولى الطائرة؛ تعيش قريباً من حلفائنا الجدد في سيناء؛ قصيرة لا تتجاوز ربع متر لكنها خطيرة جداً تضم جسدها مثل السوستة ثم تقفز فجأة لمسافة عدة أمتار فيمكنها أن تصيب الجمل وراكبه، لذلك يحرص البدو وجنود حرس الحدود على اتخاذ احتياطات كثيرة أثناء سيرهم بالجمال فيرتدون أقنعة على الوجوه ونظارات على العيون وواقيات سميكة صلبة على الأحذية والبيادات للوقاية من قفزاتها القاتلة، أما النوع الآخر فالطريشة الموجودة في الصعيد وهي أطيب قليلاً؛ لا تقفز عالياً ويصل طولها إلى متر؛ تدفن جسدها في الرمال فلا يظهر منها إلا العينان وتنام طوال النهار ثم تبدأ في اصطياد الفرائس بعد الغروب.

تقول الأساطير أن إبليس دخل الجنة ليغوي أبانا آدم متسللاً على صورتها أو بين أسنانها!

أكانت هذه فرصتنا للقضاء على الأفاعي التي حولت حياتنا إلى جحيم؟!

نظرت فإذا القصر المهجور محاطاً بسور حديدي من أسياخ طولية بينها زخارف على هيئة أزهار مشبكة ونحن نراها: (أمل) ما زالت تلهو بجمالها الرائع في براءة داخل السور، خرج الثعبان الضخم من شق في الجدار واتجه نحوها ببطء والجميع مذهولون من هول المشهد، وفجأة جاء الشيخ أحمد الرفاعي الكبير ليصرخ (أنا لها) وفتح الباب الصدئ في شجاعة نادرة (أنا رفاعي) رفع سيخاً طويلاً ليضرب به الثعبان وهو يتمتم بتلاوات لم أتبينها فأطارت الضربة ذيل الثعبان الذي اختفى بسرعة داخل الشق، مضى الكل يلهج بالثناء على شجاعة الرجل: الحمد لله على نجاة الفتاة- كنت أفضل لو تم الأمر بجهد جماعي ينهي الأسطورة كلها- ولكن لا بأس؛ مضى الجميع يهنئون الأم وتصورنا أن المشكلة قد انتهت على خير، ولكن فجأة ظهر الثعبان الضخم مرة اخرى ليهاجم الشيخ أحمد الذي ظل واقفاً في مكانه! ومضى الماكر وحوله جوقة من الأفاعي المرعبة يزفّونه في غضب بأصوات مزعجة كالأجراس؛ انطلق الناس يركضون خائفين والعصّار يلتف حوله بنعومة والرجل يقول باطمئنان عجيب (لا تخشوا شيئاً؛ ابقوا في أماكنكم، أنا حفيد الرفاعي الكبير) وظل يتلو أذكاره واثقاً من النجاة! ظل يعزِّم والثعبان يعصره عصراً حتى غاب به إلى داخل البيت ونحن لا نملك له شيئاً؛ فقد كان دخول أحدنا إلى قصر الأفاعي معناه الموت المحقق.

ضربنا خيامنا بسيناء في ليلة مقمرة ساحرة، ليلة الخامس عشر من الشهر الهجري، سماء صافية ترى نجومها بوضوح ولحن ناي شجي من أحد الأعراب يتجاوب صوته مع أصداء الجبل ومعزوفة الموج من الخليج القريب؛ سافرت كثيراً داخل وخارج مصر وأشهد- لم أرَ أجمل من أرض الفيروز! يتهادى الجمل مع النغمات وفجأة يطير شيء من قلب الرمال فيلدغ قدمي المكشوفة ويختفي في لمح البصر إلى الرمال من جديد! صرخت من الرعب أكثر من الألم؛ نظر الفتى البدوي إلى الجرح فعرفه على الفور:

- طريشة! كانت الكلمة كافية لإدخال الرعب إلى قلبي وإلى نفوس الجميع، هتفت مرتعداً:

- والحل؟ أنذهب إلى مستشفى؟ فقال:

- لا وقت، الله يساعدك، التف حولي الزملاء فقلت متأثراً بأفلام السينما:

- هل ستمتص السم من الجرح؟

- لا ينفع مع الطريشة؛ سمّها زُعاف يصيب من يمتصه، ثم أمرهم بحزم:

- اربطوا أعلى الجرح برباط محكم، ثم انتحى جانباً فأخرج من جانبه خنجراً وضعه في النار حتى احمرّ ثم اقترب ليكوي به مكان الجرح؛ فصرختُ وغبت عن الوعي.

كان ما حدث في ليلة الأوراق المطوية- عكس المُنتظَر- أكبر دافع لي لأتخذ قراري بترك طريق الرفاعية! لست إلا إنساناً عادياً؛ الترقي حتى أصل إلى

مثل تلك "الكرامات" أو "السحر" شيء مخيف! وطوال عمري لم أكن متبوعاً بأي شكل! لن أتحمل تكاليف الصعود ولا نتائجه!

حين أفقت بعد يومين وجدت الفتى السيناوي بجواري وقال:

- حمداً لله على سلامتك، اشرب، إياك أن تترك جزءاً من جسمك مكشوفاً في صحراء سيناء! قلت بوهن بالغ:

- جزاك الله عني خيراً، فقال:

- ستتعافى؛ هذا من فضل الله وحده، قليل من ينجو من سم الطريشة، لدغتها والقبر؛ سمها قاتل ولا مصل له، في أغلب الأحيان نبتر الجزء الملدوغ! فهتفت:

- بتر؟ يا ستّير! ثم مضى يحذرني وزملائي:

- يتجدد سمها في الفترة من اليوم الخامس عشر إلى الخامس والعشرين من كل شهر هجري، ولابد أن تفرغ السم القديم في أي شيء؛ حجر، شجر، بشر! حتى يتجدد السم مرة أخرى ولذلك تكون كميته في منتصف الشهر العربي كبيرة جداً وأخطر ما يمكن وتستطيع أن تقتل إنساناً خلال نصف ساعة، فقلت:

- ولكن الألم لم يكن شديداً، فأوضح:

- المصاب بلدغة الطريشة لا يشعر بأعراض سريان السم في جسده- بعكس لدغة العقرب يسبب سمها من البداية اضطرابات وتهيجاً عنيفاً في الجسم-

لكن يتغير جلد المصاب إلى اللون الأسود ثم يحدث تورم شديد في الجزء الملدوغ ويلقى الإنسان حتفه إذا لم يتم إسعافه خلال دقائق! ثم نظر إليّ وقال:

- لا تقلق، نجوتَ بمعجزة من الله وحده، سوف تشعر بعد ذلك برعدة كل منتصف شهر هجري ثم سوف تشعر بالأعراض مجدداً كل سنة في الموعد نفسه؛ فهتف عادل:

- وكأن السم يعرف موعد سريانه في الجسم فيجدد الذكرى كل عام! فقلت:

- أو كأنما يحتفل الجسد بنجاته من الموت المحقق! فقال الفتى الذي أنقذ حياتي:

- قل الحمد لله، سيصبح مكان اللدغة أكثر سواداً ويتورم لكن سرعان ما سيعود إلى حالته الطبيعية فتختفي الأعراض بعد عدة أيام!

قالت نادية بطريقتها الحنون:

- فاحك لي عن طفولتك، فقلت:

- لم تكن سعيدة، لولا أمي لانتحرتُ، كان أبي يضربني باستمرار

- كل يوم؟

- تقريباً، فاندهشَت:

- ولكنه كان يحبك ولا شك؟ فقلت في حزن:

- لا أظن! تبسمت لائمةً:

- لا تقل هذا؛ الجميع يذكرونه بالخير ويتحدثون عن طيبته رحمه الله
- كان طيباً مع كل الناس إلا معي
- لا تبالغ، كنتَ ولداً على بنتين؛ طبيعي أن يقسو عليك قليلاً لتصير رجلاً، لماذا تبكي الآن؟
- لا أتذكر ليلةً واحدة من طفولتي بِتُّ فيها سعيداً! البسمة الوحيدة في حياتي كانت أمي
- فاحكِ لي عنها، ابتسمتُ:
- النيل والهرم وصوت أم كلثوم؛ الشمس التي تمد بالدفء والحنان والضياء، الماء الذي يروي الأرض العطشى فيرد إليها الحياة، الطيبة التي لا تنتمي إلى دنيا البشر، العطاء الدائم الذي لا ينتظر رداً ولا شكراً من أحد، الإيمان العميق الراسخ والبسيط الرائع في آن واحد، صباحة الوجه وجمال الروح والأصل الطيب كونها من الأمشاطية والسماحة المتواضعة العجيبة مع الفقراء حتى أعتقت أم حبشي دون مقابل! فقالت:
- الله الله، سأطلب منك أن تحكي لي عنها كل ليلة لأسمع كل هذا الشعر، انتابني شعور عجيب؛ مزيج من الحنين لذكرى أمي غالية الغالية، حزن عميق على فقدها، غضب من أبي الذي سرعان ما نسي ذكراها وتزوج الفاجرة! فقلت وأنا مبتسم وأبكي في اللحظة ذاتها:
- أرجوكِ؛ فلنغير الموضوع! فاحتضنتني في حنان:

- يرحمها الله، فأخبرني عن عزة

- تسألين عنها لأنها لم تحضر فرحنا؟

- لم أعرفها إلا من المكالمات الهاتفية

- تزوجت من الدكتور عصام؛ ابن عائلة الشامي العريقة

- سمعت عنهم كثيراً

- قصرهم شرق البلد؛ جنة أشجار ورياحين تحتضن أجمل مبنى شاهدته في حياتي! وكانت ليلة الزفاف مشهودة لم تر قريتنا مثلها لسنوات

- أهم أغنياء؟

- كانوا! احترقت الدار وسُرقت خزائن الأموال بعد حصاد محصول ضخم، وبعد أن كان الدكتور عصام من الأثرياء سافر إلى الخليج بحثاً عن الرزق

- ومن حرق دارهم وسرق أموالهم؟

- مثل هذه الحوادث تقيد ضد مجهول؛ حتى وإن كان معلوماً، تعجبت:

- وهل تعرف الجاني؟ فقلت:

- الحقيرة؛ لم أكن أعرفها وقت الحريق؛ أما الآن فقد عرفتها، كانت خادمةً عندهم!

- وأولادهم؟

- الأولى حبيبة قلبي العبقرية "حماس" ولدت في أوج الانتفاضة، وأخوها "جهاد" يصغرها بعامين؛ أقل منها تفوقاً ولكنه أكثر حركة ونشاطاً.

زيارة!

بداية الشباب؛ نذهب إلى المزارع المنتشرة في أبو رواش وكرداسة وأحياناً إلى البدرشين نصطاد اليمام الذي كان وفيراً، يعن لنا أن نصوب أحياناً على العصافير الصغيرة التي لا نستفيد إلا قتلها أو تعذيبها فلحمها لا يؤكل! كنت بطل تلك المعارك التافهة لكن أصدقائي كانوا يتضاحكون!

السندرة؛ تسقط ورقة من بين آلاف؛ تاريخ قسيمة الزواج الثاني لأبي واضح؛ يسبق تاريخ وفاة أمي ببضعة أشهر! أفكر؛ علمت أمي فمرضت؛ ذبلت وضعفت ثم قتلها الحزن والإهمال! قتلتها الغادرة، أَم أبي فعل؟ أمي الحبيبة؛ أكنت مقصراً حين قتلوكِ بغدرهم؟ وهل كنتَ تعرف؟ كل شيء كان يخبرك؛ ضحكتها التي اختفت، ذبول وجنتيها، طاقتها التي فترت، انطفاء روحها، مرحها الذي تبدل بؤساً، اكتفيتَ بسؤال تقليدي يشبه اطمئنان الغرباء العابر:

- ألف سلامة، مالك يا أماه؟ ولم تعقب بعد قولها:

- الحمد لله يا ابني، فضل ونعمة. كيف مرت عليك كل تلك الأعراض دون أن تتنبه وتفهم، وهل كانت ستخبرني؟ كانت تحب أبي ولا شك ولم ترد أن تزيد سخطي عليه أو تهدم صورته- المشوهة من الأصل- في ذهني، تحملت وحدها أن يتزوج رفيقُ دربها عليها، ومن؟ خادمة أنقذتها يوماً من التشرد!

تزوجت أختاك ولم يبق غيرك معها في البيت؛ كونها لم تبثك أحزانها معناه أنك بالفعل كنت بعيداً جداً؛ تيقنَت أنك في عالم آخر لا تشعر بها ولا تهتم! يقتلني الإحساس بالندم، أين نبتة اسكليبوس؟ آه لو تعودين إلى الحياة يا أماه، لانتقمتُ لكِ وجثوتُ أقبل قدميك حتى ترضي عني، آه لو يعود الزمن إلى الوراء.

بدت حزينة؛ كنوع من الرد مفتعِلاً قلت:

- فخبريني أنت عن طفولتك

- ولدت في بيت عائلة كبير وقضيت طفولتي- مع أبي وأمي- بين جدي وجدتي وأعمامي وأولادهم لا نكف عن اللعب والمغامرات؛ كان لدينا حوش كبير ملئ بالأشجار ومثل كل آل طلبة كان جدي يمتلك مزرعة ضخمة للثعابين! فابتسمتُ:

- أخبرني عادل أن أطفال عائلتكم يحبون اللهو مع الأفاعي منذ نعومة أظفارهم! فقالت:

- إلا أنا! فاندهشتُ:

- ولماذا؟ فأجابت وهي تمسح دموعها:

- كنت في السابعة عندما خرج أبي مع أخيه ذات يوم ليقبضوا على كوبرا أصابت بيوت أبو رواش بالرعب، كادت تقتل عمي بعد مطاردة قصيرة ولكن قتلها أبي، جاءت كوبرا أخرى فعضّت أبي وأردته قتيلاً، ونجا عمي-

والد عادل- بعد أن قتلها، استأجر جدي لنا شقة بعيدة وفارقت الثعابين بقية حياتي، قلت:

- علمت أن أباك مات وأنت طفلة لكن لم أعلم بتلك القصة!

- الذكرى تؤلمني

- أنت إذن من عائلة طلبة لكن لا علاقة لك بالأفاعي؟ فابتسمت في مرارة:

- أعرف أنواع الأفاعي جيداً وأستطيع أن أميز السامة من الطيبة! فقلت:

- وهل تستطيعين صيد تلك السامة كأبناء عمومتك؟

- بل إذا رأيتها ألوذ بالفرار بأقصى سرعة! الأمر بالنسبة إليهم مختلف؛ صيد الأفاعي مصدر رزقهم الأساسي؛ يبيعون الكوبرا الواحدة بمئات الدولارات أما السم فيستخرجونه ويبيعونه بالآلاف

- وهل يقرأون عليها تعازيم كتلك التي يحفظها الرفاعية؟ فضحكت:

- بل تدريبات وخبرة! هل تعرف؟ علمني مقتل أبي درساً مهماً

- أن تبتعدي عن الأفاعي؟ فقالت:

- يقول بعضهم: إذا أردت أن تقتل ثعباناً فتأكد أن تقتله بعيداً عن ذويه؛ ثم ليتك تنجو! فقلت متعجباً:

- ولماذا؟

- لكل ثعبان قرين من أقاربه؛ إذا رآك وأنت تقتله ترتسم صورة القاتل في عين الثعبان المخططة ويطارد قاتل قرينه فلا يتركه ولا ينساه أبداً حتى ينتقم فيقتله أو يهلك! أخذتني رعدة:

- أسطورة أخرى طبعاً؟

- الأسطورة أقوى من ذلك، فقلت في وجل:

- وهل هناك أقوى من ذلك؟

- يقولون إن الثعبان المقتول نفسه يحتفظ في عينيه بصورة قاتله، ويأتي قرينه فيرى الصورة المحفوظة في عيني صديقه المقتول ويحفظ ملامح القاتل ثم يطارده بإصرار حتى يقتله ولو ذهب إلى آخر الدنيا! ترعبني كلماتها فأسألها:

- يا الله، وما العمل؟ فقالت:

- إذا أردت أن تقتل ثعباناً فلا تتركه قبل أن تقتلع عينيه!

- يا له من درس لمن يعي!

يدق الباب بعد شهور من الصمت؛ أفتح فإذا بها أمامي؛ زيونية وأمامها أخي موسى وفوق رأسها حقيبة ضخمة، بادرَت بطريقتها السخيفة:

- مالك؟ أرأيت العفاريت؟ ألن تدخلنا؟ فركعتُ لأحتضن موسى الذي جفل مني فقلت:

- ألا تعرفني؟ أنا أخوك، ثم قلت مرتبكاً:

- تفضلوا، فقالت:

- وكيف يعرفك وأنت لا تسأل عنه؟

- مشاغل، ماذا تريدين؟ فضحكت بخلاعة معهودة:

- نزورك يا ابن الغالي؛ نطمئن عليك، أخوك اليتيم يراك، أنت الحبيب ابن الحبيب!

- فيكِ الخير، لكن أخبريني بالحقيقة، فزادت ضحكاتها الساخرة:

- أتيت أرد لك هذه الأمانة التي تمنعني النوم؛ كنزكم القديم! نظرت فإذا هي حقيبة أمي، هتفت:

- إذن أنت يا ملعونة من سرقها! فضحكت:

- اهدأ؛ لم أسرق شيئاً بل أهداها لي أبوك- الله يرحمه- خالصة، ومع عملاتها الذهبية أهداني كثيراً من الحُليّ والأساور والخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة، صرخت في قمة انفعالي:

- سأقتلك أيتها المحتالة، لم يكفِك خطف زوجها فسرقتِ كل ما امتلكت، فضحكت بنظرات متحدية:

- أنت موقن أنني صادقة، أبوك أعطاني طواعيةً كل شيء، لا داعي للصراخ والتهديد، فلنتفاهم بهدوء! نظرتُ إلى أخي المرتعد بجوارها فكظمت غيظي وقلت:

- وماذا تريدين الآن؟ فأشارت إلى الحقيبة:

- كل خير، أرد لكم بعض ميراث أمكم

- بعض؟ فضحكَت باستفزاز:

- وإياك أن تخبره، والله لو علم عمك أني جئتك به لقتلني، أتيت دون علمه، أخذ أغلب القطع الذهبية لنفسه ولم يبق إلا ما في هذه الحقيبة، أرجوك خذه لأتمكن من النوم! فقلت:

- والله أصيلة

- تهزأ بي؟ هذا ظني بك، لكن إياكم أن تتصرفوا في شيء منها

- ترُدّينها مع إيقاف التنفيذ

- هذا لمصلحتكم؛ افهمني، لو ظهر عليكم الثراء الآن فستكونون مطمعاً لقطاع الطريق واللصوص، فقلت ساخراً:

- لا والله؟

- لا أريد إلا مصلحتكم، لا يمكنكم التصرف فيها إلا بعد أن تمر مدة طويلة حتى ينسى عمك الأمر أو يتوفاه الله، أما قبل ذلك فلو عرف سيذبحني وربما قتلكم!

- لهذه الدرجة؟ فهمَسَت:

- أنت لا تعرفه؛ قاسٍ شرير، يرحم الله أباك؛ كان طيباً، أما حجازي فيُصبِّحني بالضرب ويُمسِّيني بالسب، ألا تعرف أنه يقدم قرابين للجن الذي يحرس المقابر القديمة؟ فقلت مذهولاً:

- قرابين؟

- يقرأ الرفاعية الطلاسم ويرشدونه إلى مكان الكنوز ثم يخبرونه كيف يتخلص من الرصد

- وما تلك القرابين؟ فهمسَت بوجلٍ بادي الاصطناع:

- سأخبرك بكل شيء في أوانه، كل ما أطلبه منك أن تكون العلاقة بيننا طبيعية من أجل هذا الصغير، أعدت لكم ميراثكم بنفسي، مهما حدث فقد كنت زوجة أبيك وأنا أم أخيك! لم يدر في خلدي أن تصل إلى هذه الدرجة من التبجح! أأحضر سكيناً وأذبحها؟ فهمَت نظراتي النارية فارتعدَت وأشارت إلى طفلها:

- موسى حبيبي سلم على أخيك، صرخت فيها:

- عندي وصف ميراثنا الشرعي بالتفصيل وما يثبت أنه كان ملكاً لأمي ولم تتصرف فيه؛ سأبلغ النيابة! ففتحت الباب وخطت خطوتين ثم ضحكت باستهزاء:

- وسمعة المرحوم؟ تريد أن تقول للناس أنه أخذ مال أمك وأعطاه لضرتها؟

فتحتُ الحقيبة فإذا بها أقل من رُبع كنزنا القديم، لماذا فعل أبي ذلك؟ ولماذا جاءت الملعونة ترده؟!

ألتقي به وسط سحائب دخان ودقات طبول ورقصات دائبة في حضرة جماعته؛ البُرهامية، يعرفني على كبيرهم: الشيخ ناصر، أبدي اندهاشاً من

مظهره الذي لا يشبه مظاهر شيوخ الرفاعية أو الطرق الأخرى، أصافحه ثم أمضي مع عبودة الذي لا يكف عن التمايل والطرب، يسألني:

- استغربتَ مظهره؟ فقلت:

- يلبس بدلة فاخرة ويدخن سيجاراً! أليس ذلك عجيباً؟

- بل ذلك ما أعجبني فيه، رجل عصري بكل معنى الكلمة؛ ومع ذلك هو القطب العارف بالله، هذا ما جذبني إلى طريقته، يجيد عدة لغات ويمتلك مجموعة مدارس ومزرعة لتسمين العجول! فقلت:

- غريبة، وهل يؤم الصلاة أو يحفظ القرآن؟

- لا أعلم، لكنه من الواصلين، ثم همس بتأثر بالغ: من أهل الخطوة! فابتسمت متعجباً:

- أهل الخطوة؟ فهمَس:

- أقسم الناس أنهم رأوه يحجّ بينما كان هنا في مزرعته! منعتُ ضحكة ساخرة ثم غيرت الموضوع:

- هل توصلت إلى شيء بخصوص اللواء القاتل؟

- قريباً آتي لك بخبره اليقين!

- في انتظارك على أحر من الجمر!

تتصل عزة من غربتها:

- أخبارك حبيبي؟ فأرد:

- الحمد لله، ما أخباركم أنتم وكيف صحة عصام والأولاد، اشتقت لكم كثيراً

- أبشرك الحمد لله؛ اقتربت مشاكلنا من الحل، تدخل كفيله في خطوة مفاجئة رائعة وقال للقاضي إنه سيضمنه ليستخرج تأشيرة ونستطيع القدوم إلى مصر، فهتفت:

- الحمد لله أخيراً سنراكم، ومتى ستحضرون؟

- تستغرق الإجراءات بعض الوقت واختبارات الأولاد في الشهر القادم، نراكم في الأجازة الصيفية إن شاء الله

- ما أروعها من أخبار، ربنا يجازي ذلك الكفيل خيراً، تأخرت شهامته كثيراً

- شهامته؟ الحمد لله على كل حال

- ما الأمر؟ فقالت:

- طبيعي، لكل شيء ثمن!

يتصل بي مصطفى يريد مقابلتي فأتهرب:

- مشاغل يا ابن خالي الحبيب، يُصرّ فأعتذر مرات ثم يفاجئني بالحضور إلى الصيدلية، يسأل بنظرة لائمة:

- أين أنت يا علي؟ أرد:

- كما ترى حبيبي، الشغل لا ينتهي، يقول:

- لا تستطيع أن تفرغ نفسك ساعتين لأراك؟! دعك مني، ألا تريد أن تطمئن على صحة خالك؟

- والله أتمنى، لكن ها أنت ترى بنفسك؛ وصفة وراء وصفة، فابتسم:

- ووصفة الثراء معروفة! وصلتني أخبار نجاحك الباهر؛ توسعتَ في العمل وأضفتَ الأدوية البيطرية وغيرها مما يجذب الزبائن! فقلت:

- الحمد لله، فأكمل:

- هل تقصد الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه؟

- مكروه؟ بل أتعب وأجتهد ويرزقني ربي بالكثير؟

- أتسمي ما تحصده من الحرام رزقاً؟ أيقنت أنه عرف بأمر زبائن الفجر فقلت:

- ماذا تقصد؟ فقال برنة حزن:

- تعرف مقصدي، يا للخسارة! يقولون إذا غضب الله على عبد رزقه من حرام وإذا اشتد غضبه عليه بارك له فيه! فقلت:

- الأمر ليس كما تظن، يهددونني وأغلبهم مسلحون وبلطجية، أتريد أن يؤذوني؟ أم أغلق الصيدلية وأوقف باب رزقي ورزقك؟

- وتجادل بالباطل أيضاً؟ لسنا ملائكة وكل ابن آدم خطّاء، أما أن تبرر الخطأ وتقتنع أنك على صواب فهذه كارثة، أفق يا أخي وعد إلى صوابك، فاستسلمت:

- نعم عندك حق، سأتوب، أعدك بذلك ولن أعود، فابتسم في بساطة أدهشتني:

- إذن أنت أخي الذي أعرفه! ثم قال: احذر؛ سأعرف إذا نكثت وعدك، وعندها سأخبر خالك بكل شيء! قلت في نفسي: الحمد لله؛ لم يقل: سأطردك من مِلكي.

احتجت مدة طويلة من التفكير لأفهم لماذا فعلَت ذلك! كنزنا بمواصفاته الدقيقة مُسجَّل في محاضر رسمية، لن تستطيع أن تتصرف في شيء منه وإذا انكشف أمرها ستكون فضيحة، علمَت أنني لن أسكت على حقي أبداً وسأظل أطاردها أينما ذهبت؛ فكَّرَت؛ تعطينا جزءاً يسيراً من حقنا- مع إيقاف التنفيذ- في مقابل أن نكف عن المطالبة بحقنا كاملاً بل ونُطبِّع معها العلاقات! يا لها من خطة ويا له من مكر! وماذا نملك إلا أن نوافق!

شباب القرية يضجون بالشكوى من الأفاعي؛ يحتجزون الرفاعي الكبير الذي لا نعرف مصيره ويطلقون صغارهم يعيثون في القرية فساداً؛ يأكلون الدجاج والبيض ويقتلون الماشية وينفثون سمومهم في التربة فتتلوث ويتركون الحبل على غاربه للجرذان والقوارض يدمرون الزروع وينقلون الأمراض، في قهوة إسماعيل نجتمع فتدور المناقشات:

هو المخطئ أن دخل بيتهم من البداية

أنسيتم لماذا دخل؟ كان ينقذ (أمل) الفتاة المسكينة ويردها إلى أمها!

بل أراد أن يُظهر نفسه بمظهر البطولة ويجعلنا نشعر بالخزي

بل هو رجل طيب

بل الرفاعية جميعاً من الأشرار

ثم توالت الإشاعات: الرفاعية! أسوأ أصناف البشر؛ يدخلون كل البيوت؛ يعرفون الأسرار وتنكشف عليهم النساء! يحملون الأفاعي- حليفاتهم- في أكياسهم ثم يطلقونها على حظائرنا وبيوتنا ويعودون يرُدُّونها إلى الأكياس ويقبضون منا الثمن، حالة جنون مطبق تسيطر على الناس وكأنهم لا يعرفون الرفاعية سنوات وسنوات، أقول:

- مآخذي عليهم كثيرة، لكن أغلبهم متدينون طيبون، فيقول بعضهم:

- لابد من طردهم خارج بلدنا لنرتاح منهم، فأسأل:

- ألا يجدر بك أن تطالب بطرد الأفاعي والتخلص من شرورهم؟ فيقول:

- نعرف الأفاعي وألاعيبها، أما أولئك الذين يُظهرون الصلاح ويبطنون الغدر فهم الشر الحقيقي، الرفاعية أخطر من الأفاعي!

استولت الفاجرة بعد سنوات من المحاولات والمكر والحرائق والسرقات على بيت الشامي.

◉ ◉ ◉

كرداسة...!

ينشطون إلى الذروة في شهري يوليو وأغسطس، وكأنهم ينتقمون من البشر! أو يقلدون تصرفاتهم الشائنة! أعذب العصافير بالتصويب عليها فلا أتركها تعيش في أمان ولا أريحها من الحياة ولا أستفيد شيئاً؛ إلا أن تعيش بقية حياتها تتألم مثقلةً بالجراح! هو الشر المحض دون شفقة! أكنا نحن من علم الأفاعي تلك القسوة أم تعلمناها منهم؟ لماذا عاد حبشي وماذا يريد؟

حين تُجرد الإنسان من آدميته يفقدها ثم لا يستردها أبداً! قريتنا كفر حكيم وسط بين أطراف متناقضة، إذا استبعدت (بني مجدول) المتنازع على انتمائها فستجد (أبو رواش) إلى الغرب حيث تكثر الآثار والكنوز وحيث معقل آل طلبة الذين طالما أعجبتني طريقتهم: يهتمون بتعليم أولادهم ويأسرون الأفاعي؛ يستفيدون من بيعها أو بيع سمومها! وإلى الجنوب (كرداسة) حيث العمال في مصانع ومتاجر العباءات وحيث يكثر الرفاعية وهناك معقل الثورة الدائمة على كل سلطة جائرة منذ أواسط الستينات!

كان أبي يحب عبد الناصر وكثيراً ما يردد: لولاه لم أكن لأتزوج بابنة الأمشاطي! لا يكف عن الدفاع عنه في أي موقف؛ حاولت مرة وحيدة أن أناقشه:

- كان يجعجع ولا يطحن إلا شعبَه! قدّم أهل الثقة الفاسدين على أهل الكفاءة المخلصين، لو كان كما يدّعون فكيف انهزم؟ فضحك ساخراً:

- اخرس يا جحش، من أنت لتتفوه بسيرة الزعيم؟

لكن حين تأتي سيرة ما جرى في كرداسة يمسك والدي عن الكلام ويهز رأسه:

- كانت مأساة، يغفر الله له، ثم يستدرك: لا أظنه كان يعلم بتفاصيلها، أقول في نفسي: عبارة يرددها كل مناصريه حين يُذكر التعذيب والقهر! وبفرض صحتها؛ فمن الذي اختار المنفذّين المجرمين؟ أما أن يقودك القدر فتجلس في الصيدلية تستمع القصة من أهل كرداسة أنفسهم؛ بل من واحد من عائلة (نزيلي) فالأمر جد مختلف!

ما زال الرفاعي الكبير مختطَفاً خلف أسوار بيت الثعابين، لا يجرؤ أحد على الاقتراب، تكثر الشائعات حول مصيره ويضج مقهى إسماعيل كل ليلة بأمواج هادرة من الحوارات التي تريح الجميع ثم ينفض السامر والرجل ما زال هناك؛ الغريب أن كثيراً من أهله يأتون؛ يجلسون يتحدثون ثم يذهبون! يرون أنه أخطأ بالتقدم- وحده- لإنقاذ أمل! وبعضهم يبدي انتقاده سراً: أراد أن يستحوذ على حب الناس في بطولة متهورة؛ فليتحمل وزر ما فعل! أتعجب: أكان بعض الرفاعية يكرهون كبيرهم؟ يستكثرون حب الناس له ويرون أنفسهم الأجدر بذلك الحب!

ينتفض الشيخ الليثي:

- بل يحبك، ربما لو أعطاك لأطغاك

- وماذا يفيده حرماني؟ فغضب:

- سبحانه؛ المنع منه عين العطاء!

اتصال من عزة تخبرني بعد السلام:

- الكفيل (أبو فهد) قادم إلى مصر بعد أسبوع

- أهلاً وسهلاً

- يسافر إلى مصر كثيراً لكنه هذه المرة قادم في عمل، أستزيد:

- وتريدين أن أقابله؟

- يريد أن يفتتح مستشفى خيرياً وطلب الاستعانة ببعض أقاربنا لشراء الأرض والبناء والتجهيز ومقابلات الأطباء والعاملين، لم نجد أفضل منك طبعاً

- الأطباء في المنطقة أصدقائي بحكم عملي في الصيدلية، والسماسرة والمقاولون كثير، ولكن متى ستحضرون أنتم؟ فقالت:

- وعد عصام أنه سيتولى إدارة المستشفى في مصر، كلها أشهر بإذن الله!

لا أستبعد المبالغة في التفاصيل؛ كل مُضطَهد يضخم مأساته! لكن التواتر يشعرك بالصدق! سألته:

- مرت سنون طويلة، فلِم كل هذه المرارة حين يتحدث أحد من أهل كرداسة عن نظام الستينات؟ قال النزيلي:

- المأساة أكبر من أن تُروى، أتسمع عن قهر الرجال؟

- أعوذ بالله

- كنت في التاسعة من عمري ولا تنمحي الصور من ذاكرتي؛ عز الصيف؛ أغسطس ١٩٦٥، مع غروب الشمس فوجئ عمي عبد الحميد بثمانية رجال أشداء يسألون عن أخيه (سيد) الذي كان عرسه من أسبوع والمقيم معه في بيت العائلة، أخبرهم أنه غير موجود فاقتحموا المنزل وصعدوا إلى الدور العلوي حيث العروس! قلت مندهشاً:

- هكذا دون استئذان؟

- دون كلام، هجموا عليه وهددوه بالمسدسات والتفوا حوله وسحلوه إلى خارج البيت فهتف: لصوص! ثم فوجئ بهم يسحبون زوجة أخيه من خلفه ويجرّونها على الأرض وهي تصرخ

- ومَن كانوا؟

- أغراب جاؤوا دون أوراق ودون إذن نيابة ولم يخبروا العمدة، ظن الجيران أنهم يختطفون عمي وزوجة أخيه فانقض الشباب عليهم! هرب سبعة منهم وسقط الثامن مغشياً عليه، وعندما قدّموا بلاغاً للشرطة أرسلوا معهم (شاويش) ليفتش المغشي عليه؛ صرخ:

- خربت يا كرداسة، الرجل من الشرطة العسكرية! فقلت:

- وما المشكلة؟ فضحك:

- بسيطة! كنا في عصر شمس بدران! انهالت علينا الضربات من كل جانب؛ جاءت سيارات مصفحة تحمل مئات العساكر والضباط، ثم جاءت الطائرات تزمجر فوق رؤوسنا؛ حصار من الجو والبر! أعلنوا حظر التجول، وبدأ القبض أولاً بكبراء البلد؛ العمدة وعائلته ثم كبار العائلات والمشايخ وشيخ الغفر، انهالوا على الجميع بالسياط؛ النساء تولول والأطفال تبكي، رأيت بعينيّ؛ جردوا الرجال من ثيابهم فوقفوا عرايا أمام أهلهم!

- لا إله إلا الله! فأكمَل:

- أوقفوهم أمام بعضهم وأمروهم أن يضرب كل واحد منهم أخاه وهم يجلدونهم بالكرابيج! ثم أركبوهم سيارات مكشوفة طافت بهم شوارع القرية وهم على تلك الحالة المخزية يضربون ظهورهم بالسياط فتعلو صرخاتهم، ثم اقتادوا الجميع- رجالاً ونساءً وأطفالاً- إلى السجن الحربي وانهالوا عليهم بالضرب حتى سالت دماؤهم، ثم كانت أكبر مأساة، نظرت فإذا الفتى يبكي فقلت:

- هوِّن عليك، مأساة أكبر مما حكيت؟ فابتسم بمرارة:

- أمروا آباءنا أن يختار كل واحد لنفسه اسم امرأة، ومن رفض اختاروا له اسماً ساخراً بعد أن يلهبوا ظهره بالسياط، أمروهم بالركوع فركعوا تحت

التهديد ثم أمروا أمهاتنا- حتى الحوامل- أن (تركب) كل واحدة فوق ظهر زوجها وتقوده كالحمار! ثم عادوا يضربون الجميع بالسياط وينادون الرجال بأسماء النساء: ابكي يا شادية! اصرخي يا ابتسام، اركعي يا حفيظة! ثم جاؤوا بالكلاب المتوحشة تنهش لحومهم! قلت:

- وكم استمر الأمر؟

- شهراً كاملاً، ثم أعادوهم إلى كرداسة عرايا كما ولدتهم أمهاتهم!

- وهل مات أحد؟

- أعرف أربعة قُتِلوا تحت التعذيب، والكثير أصيبوا بالجنون والصرع! واحتاج الجميع سنين طويلة ليعودوا إلى حياتهم الطبيعية، وما عادوا!

- ومن هو (سيد) هذا وما جريمته التي عذبوا من أجلها قرية كاملة

- كان من الإخوان.

بكيت لتلك القصة قبل أن أرى بعينيّ هولاً أكبر! كيف يطير الحمام مشوياً في السماء وتخرج الأسماك مشوية من الماء؟

أسأل شيخي الليثي مرةً أخرى:

- وهل يعيد التاريخ نفسه؟ ابتسم:

- لا بأس من التكرار، قلت لك: بل نحن لا نتعلم من دروسه!

- فإذا أعاد نفسه؟

- كارثة! يعود بتجربة أسوأ.. كثيراً!

قرب نهاية الشهر تخبرني أن ضابطاً أبلغها أن السرقات منتشرة في الحي العريق بروما، سألتها:

- وما العمل؟ فقالت نادية:

- يقول إنهم سيقومون بتركيب كاميرات للمراقبة في مداخل البيوت والشرفات وأمام النوافذ! اندهشت:

- داخل الشقة؟

- نعم

- ولكن لن نركب كاميرات تراقب هذا الفِراش! فضحكت:

- يا شقي!

أتت أول- وآخر- انتخابات حقيقية في قريتنا بعم درويش الذي لا يترك المسجد مع كل صلاة، هل الناس يحبون الدين أم مظاهر التدين! وهل هو أفضل من يقوم بمهام العمدة في قرية تحكمها الأفاعي- فعلياً- منذ قرنين من الزمان؟ أكان الصواب أن نأتي بقريب للعمدة السابق ينهب خيراتنا من جديد؟ أكان ينبغي أن أذهب لأتفاوض مع الأفاعي وأعرف من يريدونه للمنصب؟ ركبنا غرور أحمق وصدقنا أننا سنعيش في حرية ونختار مصيرنا!

أنفرِدُ بعبودة وسط سحائب البخور العاطر ودقات الدفوف الهادئة؛ حضرة السادة الشاذلية الذين يتقربون إلى الله بالحب؛ وفقط! يقول:

- عرفت كل شيء عنه، همست:

- تقصد لواء الجيش؟

- ومن غيره؟ سأخبرك في الخُن!

تتأمل نادية السماء بعد مطر مثير وتهمس في أذني بدلالها الأخّاذ:

- أتعرف قصة قوس قزح؟ فأقول مبتسماً:

- لا، فتقول:

- انظر إليه أولاً أيها المتيم بأساطير الأفاعي، وسأقص عليك الحكاية!

◉ ◉ ◉

الترفاضة..

حين سألته عن السبب قال الإمام الليثي:

- من تمام حكمته أن المسخ لا يُعقِب

- وكيف النجاة؟ فأكمل:

- ومن تمام رحمته أن فتح باب التوبة للعبد ما لم يغرغر!

أسأل عادل سؤالاً صريحاً:

- أتكره الرفاعية؟ ابتسم:

- بل أشفق عليهم من أنفسهم؛ كبيرهم المختطَف والد أعز زميل لنا، ابتسمتُ ففهم مقصدي وقال: هم ناس من الناس؛ منهم طيبون لا يريدون إلا الخير للجميع وأولهم الشيخ أحمد وابنه، ومنهم والعياذ بالله أمثال منصور؛ نصاب يبيع الأوهام بالمال، وعلاء مثله لكنه يبيع دينه للسطوة والشهرة! اندهشت لكلامه الذي جاء بخلاصة معرفتي بهم طوال سنين بينما لم يختلط بهم كثيراً!

- لكن أمراً ما يجمع بينهم على اختلاف نفوسهم، فضحك:

- النظام!

- فهِّمني، فضحك بشدة أكبر:

- لا يمكنك أن تبقى واحداً من الرفاعية إذا لم تأتمر بأقوال شيخك؛ من اعترض انطرد!

أنظر مبتسماً وأتذكر كلمات أمي:

- وهل سأعيش حتى أفرح بك؟

- أطال الله عمرك يا أماه

- تزوَّج من تميل إلى أهلها، الزواج ليس علاقة بين فردين، بل (مصاهرة) لأنه علاقة انصهار كاملة بين عائلتين، لم أبدِ اقتناعاً كاملاً لكني تقبلت الكلام؛ لم أرد أن أجادلها، مالت كفة الاختيار نحو نادية فرنت كلماتها في أذني، وقبل قراري النهائي سألت عادل:

- قل لي أمراً واحداً يميز آل طلبة عن الرفاعية! فضحك:

- واحد فقط؟ أنت تعرف عن الفريقين كل شيء!

- أهم ما يميزكم!

- تعال معي، أتحب أن نتمشى أم نركب؟ فقلت:

- بل أستعيد معك ذكرياتنا القديمة سيراً على الأقدام

لكل شارع معي ذكريات، ورائحة وروح! أقسم أن الشوارع تعرفني كما أعرفها؛ مدارسها ومساجدها وعياداتها ودكاكينها ومقاهيها وأماكن الاختباء فيها؛ هذه بني مجدول وتلك ناهيا ثم برك الخيام والمعتمدية وصفط اللبن ومن هذا الطريق تصل إلى بلدتنا كفر حكيم ثم أبو رواش ومنشأة

القناطر، آه يا رب؛ يأخذني حنين ذكريات رائعة حين نمر بجوار فيلا الدكتور راغب؛ تأبى رائحة الياسمين أن تغادر المكان خارج السياج الحديدي العتيق منذ كنا أطفالاً، هذه مدرستنا الثانوية؛ كنا نذهب إليها بالدراجات ونقفز من فوق أسوارها العالية في مغامرة لا لزوم لها فقد كنا نشتري شطائر الطعمية من مطعم الدمياطي القريب ثم نعود نتسلق السور إلى داخل المدرسة من جديد! هذه كفر طهرمس بحقولها وذاك شارع ناهيا وهنا شارع سوريا- بعد أن ماتت الوحدة- وشارع السودان- بعد أن تلاشت أحلام التكامل الاقتصادي- وتلك بين السرايات وشارع ثروت؛ شقة الدور الثاني التي تطل من شرفتها فتاة ذهبية الشعر رائعة الجمال؛ نتلكأ ونختلس النظرات ونصفّر ثم يأتي عادل فيقذفها بباقة ورود- لا ندري من اين جاء بها- تفاجئها فتجلجل ضحكتها وننطلق راكضين خوفاً من أهلها! وفيصل الذي كان وقت طفولتنا شارع أشباح تخاف أن تسير فيه وحدك، والهرم الساهر دوماً ثم عمرو بن العاص وخاتم المرسلين وترعة الزمر أما هذا فالمسجد الكبير؛ مسجد أبي بكر الصديق؛ وما أدراك ما مسجد أبي بكر الصديق! ساحة الصراع الدائم بين المتدينين وبين المُخبرين! وهنا بولاق الدكرور ونزلة بهجت وها هي كفر غطاطي وشجر التوت الذي كان يتساقط ناضجاً فنجمعه ولم أذُق في حلاوته شيئاً بعده، ثم منشأة البكاري حيث كان صيد اليمام غيّتنا، يصيبنا الإرهاق فنركب أخيراً إلى مسجد السيدة

عائشة؛ نصلي العصر ثم نمضي إلى الساحة المجاورة المزدحمة بالباعة والمشترين؛ يذهب إلى تاجر يعرفه:

- حبيبي وِلد طلبة الكبير! يضحك الرجل الخمسيني ويحتضنه:

- عدّولة، كيف حالك والجميع؟ يتبادلان الضحكات والذكريات، يلتفت عادل إليّ:

- سأُريك الآن عملياً؛ أنظر، ثم قال الرجل:

- عم عباس، أعطني ترفاضة، أخرج من كومته آلة معدنية تشبه الكمّاشة وناولها لعادل الذي قال لي:

- هذا ما يميزنا عن الرفاعية! لم أفهم فشرح:

- ننصح المربين للأفاعي بضرورة إزالة أنيابها كل فترة بهذه (الترفاضة) لمنع اللدغ المفاجئ! ليس بيننا وبين الأفاعي عهود ينقضونها ولا تعازيم يخالفونها، بيننا وبينهم الترفاضة، نوقفهم بها عند حدودهم؛ إذا طالت أنيابهم انتزعناها! فهتفت:

- الله أكبر، فأكمل:

- لعلمك؛ كثير من الفتيات الآن يقبلن على شراء الأفاعي الصغيرة لمنع التحرش؛ تفتح الفتاةُ الكيس من حقيبتها فيهرب من يعاكسها مرتعباً، فقلت:

- ويشترين معها الترفاضة؟ فأجاب:

- بالضبط؛ تدفع من مالِك وتحضر ثعباناً لحمايتك من الأعداء؛ فلابد أن تحمي نفسك من أنيابه وإلا استدار ونهشك أنت! أما العهود فقد اخترعها الأقوياء ليضمنوا رضوخ المساكين! هل سمعت عن قوي- في عالمنا اليوم- يلتزم بعهده مع الضعفاء؟

نظرت إليه مندهشاً- أو مُعجباً- من جديد وكأني لم أعرفه قبل ذلك؛ من أين جاءته كل هذه الحكمة؟ كان خفيف الظل لا يكف عن المغامرات وعمل المقالب، صدق من قال إن مغامرات الصبا عبقرية في الكبر!

ألتقي بالرفاعي الصغير مصادفةً، أسأله:

- هل من جديد؟

- لا نعرف عن أبي شيئاً

- وماذا ستفعلون؟ نظر في قلق ثم قال فجأة:

- أتذكر عم حبشي؟

- من؟

- حبشي، الذي كانت أمه تعمل في بيتكم

- أوه، مضت سنون طويلة، ما له؟

- قصة كبيرة، صار شيئاً آخر!

تنفض الحضرة دون الضجيج المعتاد في غيرها؛ لكنه ليس الهدوء المريح الذي يشعر بطمأنينة القرب! أكانت سكينة مفتعلة أم أنني فقدت الإحساس

الأوّلي البريء؟! بعد الطقوس الخاشعة أجد من المريدين مشاهير لا تخطئهم عين؛ هذه (سميحة يسري) نجمة أفلام الخمسينات السمراء ترتدي ثوباً وقوراً أسود اللون يصل إلى منتصف الساق وتضع نظارةً سوداء أنيقة تخفي نصف وجهها، تُقبِّل يد الشيخ الأزهري، تهمس بشيء لصديقي عبودة باسمةً ثم ترفع صوتها كأنها تتفاخر لتُسمِع الجميع:

- قلت لهم مراراً أنا حامدية شاذلية! يبتسم عبودة ويقول:

- الحب مرقاة الصعود! وخلفها بقليل الفنانة الشابة التي اشتهرت بأدوارها شديدة الجرأة (حنين شراقي) ترتدي معطفاً من الفرو البُني فوق ثوب بيج أنيق يرتفع عن ركبتيها ببضعة بوصات في كامل زينتها وقد وضعت إيشارباً حريرياً ذهبياً يكشف خصلات شعرها الأحمر فيزيد لونه التهاباً! ومعهم مخرجان وبعض المصورين؛ يتحركون نحو سياراتهم بسرعة لكن دون ضجيج، يظلل الجمع هدوء مشوب بالترقب؛ كأنهم لا يريدون تطفلاً من أحد! كدت أسأل عبودة: أليس عجيباً أن تأتي النساء حضرةً (دينية) دون احتشام؟ لكني وجدت السؤال سخيفاً، وكأنه فهم ما يدور برأسي فابتسم وقال:

- كلٌّ يتقرب بطريقته!

جاء زواجي ورحلة أوروبا بفوائد جمة؛ راحة بعد عناء العمل سنوات متصلة، تخلصت من المدمنين الذين يضايقونني بعد منتصف الليل، ماذا

سيفعل معهم مصطفى؟ ألقيت بهمومي ومخدراتي وبمسئولية الصيدلية إليه وإلى جاسوسه البارع (رامي) الصيدلي حديث التخرج الذي جاء به بحجة التدريب وأعرف أنه يراقب كل شيء! مثل كل لحظات السعادة ينقضي الشهر سريعاً، أتصل بمصطفى:

- حبيبي معذرةً؛ أريد أن أمد فترة الأجازة، فيضحك:

- أعجبك العسل؟

- ومن يكره؟ فرد يمثل الجدية:

- الشهر أصلاً كثير، الطبيعي أسبوع ثم نعود إلى أعمالنا

- أرجوك! فضحك:

- ومتى ستعود؟

- بأسرع ما أستطيع

- لا يا حبيبي، أريد موعداً محدداً، رامي تنقصه الخبرة ولن يستطيع القيام بدورك

- بل فيه الخير والبركة، أمين ومجتهد

- لا تراوغ، فضحكت:

- سأتصل بك قريباً، فأجاب:

- لا تتأخر.

مارس؛ خلف النافذة تشير إليّ:

- ها هو قوس قزح، قلت مبتسماً:

- فأخبريني بقصته كما وعدتِني

- تقول الكتب القديمة أنه أمان من الله للبشر بألا يتكرر إهلاكهم وقت الطوفان، أما سكان أمريكا الأصليون فعندهم أسطورة جميلة

- الهنود الحمر؟ فابتسمت في مرارة:

- لم يكونوا هنوداً ولا حُمراً؛ بل أصحاب الأرض الذين أبادتهم أسلحة المتحضرين ذوي البشرة البيضاء!

- فما حكايتهم؟

- تقول الأسطورة إن أراضيهم تعرضت لجفاف شديد أهلك الزروع والبهائم، حتى ظهر الثعبان الطيب وقال لزعيم القبائل الذي كان أقوى الرماة: الحل أن تقذفني بكل قوتك إلى السماء لأكشط السُحُب فينزل المطر، اعترض الزعيم: لكن هذا ليس دورك في الحياة، أصرّ الثعبان: لن ينقذكم إلا هذا الحل، فوافق الزعيم وتلا صلواته بخشوع ثم قذفه بأقصى قوة إلى أعلى، فتقوس جسم الثعبان ليجرف السحاب، ثم تبدل جلده لتظهر الألوان: الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجي وهكذا حتى نزل المطر وعادت الحياة إلى أراضيهم وأصبح ظهور القوس في السماء عيداً يحتفلون به ليشكروا الثعبان ويقيموا المهرجانات ويرقصوا بطريقتهم الجميلة! وتعودت

الحيّات أن تخرج من بياتها في الأيام المشمسة المطيرة احتفالاً بالذكرى، تأملتُ قليلاً وقلت:

- وهل تكون الأفاعي طيبة مفيدة؟ فضحكت:

- طبعاً، أغلب الأفاعي طيبة لا تؤذي إلا من يحاول مهاجمتها، وما رأيك في الكوبرا (واجيت) التي كانت تحرس ملوك مصر القدماء فوضعوها فوق الرؤوس في مقدمة تيجانهم؟ ثم لا تنس أنها مصدر رزق عائلتي، لذت بالصمت، فقالت:

- مالك؟

- أتعجب من طيبتك، خطر لي الآن رابط جديد يجمع بيننا! أبوانا؛ كلاهما قتلته الأفاعي!

يجلس عبودة داخل الخُنّ الداخلي المخصوص في قهوة إسماعيل وقد أصبح من مريديها الأوفياء، يهمس:

- جئتك بالخبر اليقين، أرد بلهفة:

- قل بالله عليك، ترتفع سحائب دخان حشيشنا الأزرق مشعرةً بنشوة زادها شوقي احتراقاً، يتلفت ويقول:

- اسمعني جيداً.. وإذا أردت التعليق فاخفض صوتك، أُبدي اندهاشاً فيكمل:

- الأمر خطير، أشير إلى فتح الله صبي القهوة:

- فتّوح، يفهم إشارتي ليغلق الباب ويمضي، أقول:

- اطمئن، هكذا لن يسمعنا أحد، يبتسم ويقول بالصوت الهامس نفسه:

- خاض كل الحروب من ثمانية وأربعين وحتى نصر أكتوبر، فقلت في تسرع:

- هل قَتل أهله؟ ابتسم وأشار بيمينه:

- الصبر يا صديقي، لم يقتُل أحداً، بدت عليّ ملامح ارتياح لم تمحُ بقايا الحيرة فقلت:

- أكمل، سحب نفساً جذلاً من الشيشة وسعل بانتشاء ثم قال:

- في لندن قتلوا صديقه المقرب الذي وصل إلى منصب شديد الخطورة وكان يجب إسكاته

- من قتله؟ فأشار بظهر كفه إلى أعلى:

- فوق.. جداً! هتفت:

- أرجوك أكمل!

- بهدوء، توالت أحداث كثيرة لم تعجبه؛ المعاهدة، النوم في أحضان الأعداء، مقتل صديقه المقرب، مصرع قادة آخرين يعرف إخلاصهم، وتحول الجيش من وظيفته الطبيعية في حماية الوطن إلى مؤسسة تسعى للأرباح وتأخذ لنفسها كل يوم أرضاً ومشاريع لا علاقة لها بوظيفة الجيوش! فقلت:

- غريبة! وما الضرر أن يقوموا بمشاريع مفيدة وقت السلم؟ فابتسم:

- أتفق معك، لكنه لم يقتنع، أخرجوه من الخدمة فلم يستسلم وحاول فضحهم على صفحات الجرائد، منعوه من الكتابة وحاولوا إغراءه بمنصب كبير فلم يستجب، دسّوا عليه عاهرة لم تنجح معه فقتلت زوجته وابنته ثم أخفوه في مكان تابع لهم وأشاعوا أنه هو القاتل، لمع اسم الفاجرة في ذهني فسألت:

- ولماذا لم يقوموا بقتله هو؟

- قتله بعد مقتل صديقه الليثي كان سيثير الشكوك في نفوس الشرفاء- وهم كثر- داخل الجيش وخارجه، أما أن يدمروا حياته ثم يساومونه بتهمة مقتل أهله فلعبة مضمونة ليصيبه الإحباط ويعيش بقية حياته مُطارداً مهزوماً، اتسعت عيناي غير مصدق وتذكرت أنني لم أخبره من قبل باسم شيخي المهيب فقلت:

- تقول إن اسم صديقه كان (الليثي)؟ فقال:

- اِنسَ يا علي؛ سامحك الله؛ لعن الله الحشيش، أوقعتني في الكلام وما كان ينبغي أن أذكر اسمه، فقلت:

- وبعد؟

- صفقة؛ يهرب ولن يتعقبوه، في مقابل أن يسكت، وتظل القضية ذكرى على صفحات الجرائد القديمة يهددونه بإعادة فتح ملفاتها إذا حاول أن يتكلم!

ندت مني آهة تعجب:

- وهل استسلم؟

- بعد حبس وتعذيب، هددوه بقتل أمه المريضة، تعقبوه بعدها فترة ثم غافل مراقبيه واختفى تماماً

- لا يعرفون عنه شيئاً؟

- ولكنك ستخبرني بما تعرف! فقلت في نفسي: لا عجب إذن أن يطارد زيونية، ثم قلت له:

- لن أخبرك بشيء حتى تخبرني أنت كيف توصلت إلى كل تلك الأحداث! فضحك:

- سر المهنة!

تستعر نار الغيرة في صدري كلما خرجت من البيت، في البدايات تكون مطمئناً إذا كنت معها وقلقاً مضطرباً حين تمضي وحدها، ثم تكتشف أنه في الحقيقة لا فرق؛ العيون الشبقة تلتهم الوجه المشرق والشعر الحريري والصدر المرمري والسيقان الرائعة؛ حتى وأنت بجوارها، سبحان من أبدع هذا الجمال، والأناقة تقضي بالتكشف ولو في ثلج الشتاء! تعود إلى عملها فتصبح مرافَقتي المستمرة لها مستحيلة، ينقلب إعجابي القديم بأناقتها وجمالها إلى ضيق وغم! أهي غيرة حمقاء لرجل شرقي مهما تغافل أو تظاهر بالحداثة يبقى في داخله إرثه القديم؟ لا أطيق صبراً، فاجأتها عائدةً:

- حبيبتي، اليس من الأفضل أن تطيلي الجيبة بعض الشيء؟ فقالت مندهشة:

- وما عيبها هكذا؟ فقلت مداعباً خصلات شعرها التي بدأت تهتز في عصبية:

- وهل أنا مجنون لأقول إن فيها عيباً؟ بالنسبة لي فإنها كلما قصرت كانت أفضل، أربت فوق كتفها الدقيق وأكمل:

- ولكنني أتكلم عن الآخرين؛ الغرباء، أغار عليك يا حبي! ترفع كفي من فوق كتفها وترد بهدوء:

- الناس هنا مختلفون، لا أحد ينظر إلى النساء، الكل يمضي بملابس مشابهة ولم يحدث أن ضايقني أحد أو تحرش بي! فقلت متلطفاً:

- لستِ كبقية النساء؛ أنت زوجتي وأجمل منهن جميعاً

- خطبتني وتزوجتني وأنا أرتدي الثياب نفسها، وتعرف طبيعة عملي في مجال الفن وفي أوروبا، لا أستطيع أن أطيل ثيابي وإلا سأصبح أضحوكة الجميع! ابتسمت مراوغاً:

- حبيبتي، منذ عرفتك وأنت منتظمة في الصلاة، تستيقظين مع فجر كل يوم، لا تقربين الخمر ولا تضعين طلاء الأظافر إلا أيام تعبك الشهري، فلننظر للأمر من الوجهة الدينية، فابتسمت:

- ومنذ عرفتك لم أرك تصلي بانتظام، أتستخدم الدين لتحقيق أهدافك وأنت عنه بعيد؟ عندما يأذن الله سأرتدي الحجاب الشرعي بإرادتي! هزتني المفارقة المهينة فابتلعتها... وسكتُّ.

الضيف..

استجابت على مضض؛ ترتدي البناطيل الأنيقة صباحاً، أما الحفلات الليلية فنذهب معاً وترتدي فساتين السواريه، لا تسير الأيام بل تعدو أو تتبخر، لابد من مواجهة لحظة الحقيقة، كيف سأعود إلى مصر؟ الغيرة تقتلني وأنا معها في بلد واحد لا تغيب عني إلا ساعات كل يوم أتحرَّق خلالها ألف مرة ولا نقضي كامل الوقت معاً إلا أجازتها- السبت والأحد من كل أسبوع- ما أيسر الكلام ثم ما أصعب تنفيذه! اتفقنا قبل الزواج أن أسافر إليها كل سنة في الصيف شهراً أو أكثر حسب ما تسمح ظروف عملي، وتأتي هي إلى مصر في الشتاء لنقضي شهراً، ونبقى على مراسلات واتصالات بقية العام؛ لا أتخيل ذلك فضلاً عن تنفيذه، مستحيل! ماذا سأفعل وبيننا آلاف الأميال؟ اتصال مصطفى زاد الضغوط:

- لا يمكن أن تغيب أكثر من ذلك، وخالك لا يعجبه الأمر!

- سامحني، قريباً سأعود.

فوجئت بعمي حجازي وزيونية ينتظران في مطار القاهرة، بادرني بابتسامته:

- أنت أيضاً جئت لاستقبال (أبو فهد)؟ تعجبت:

- نعم، ولكن ما أدراكم به؟ ضحكت الحرباء:

- الدكتور عصام كلمنا وقال نقابله ونكرمه، ولا بركة لنا إلا أختك وزوجها طبعاً، تحيرت فأختي عزة تعرف أنني على خلاف دائم مع عمي منذ وفاة أبي، وتعرف أنني لا أطيق سيرة زيونية فضلاً عن التواجد معها في مكان واحد، سألت نفسي: ماذا يحدث، هناك أمر غامض لا أستوعبه، عصام يكره زيونية أكثر مني، أوشكتُ على الرحيل قبل أن يعلن الميكروفون عن وصول الطائرة الخليجية المرتقب، أرفع لافتة عليها اسم الرجل فتضحك باستفزاز:

- لا لزوم لذلك، صورته معنا؛ اُنظر! زادت دهشتي وحيرتي:

- وعصام أرسل لكم صورته أيضاً، فضحكت:

- بل أرسلها أخي الذي يعيش هناك وهو صديق شخصي لأبو فهد، أكيد تذكره منذ حفل زواجي بأبيك، لعلمك؛ أخي- بناءً على توصياتي- هو الذي نصحه أن يقيم مشروعاته الخيرية في قريتكم ولولاي ما أتى ولا دفع مليماً! تتوالى مفاجآتها وتزداد دهشتي، لا معنى لوجودي إذن، لماذا لم تخبرني عزة؟

أحمل جبالاً من الهموم فوق كاهلي، أعود إلى شيخي الليثي وأسأله:

- الكوابيس تؤرقني كل ليلة، جِد لي حلاً من العذاب أرجوك، ابتسم فأشرقت الشمس:

- اجعلها هماً واحداً، لم أفهم فسألت ثانيةً:

- كيف؟ فابتسم:

- اجعل همك له وحده، وأشار إلى السماء فقلت:

- ونعم بالله، ولكن كيف؟

- لا تكف عن السؤال، ولن أكف عن الإجابة نفسها؛ أسرع بالتوبة قبل أن تدمرك اللعنة وتدمر الجميع! أصابتني رعدة فضحكت بهستيرية وقلت:

- وهل هناك لعنة أكثر مما أصابني؟ فقال:

- لم تبدأ المأساة بعد!

أكان انتظامي في الصلاة بعد طول تكاسل عودة إلى الاستقامة أم إرضاءً لنادية أم لمجرد الحفاظ على صورتي أمامها، أذكر تلك الأيام في الجامعة بعد أن أُفرِج عن (الإخوة) بعدة سنوات فعادت دعوتهم تنتشر وسيطروا على أغلبية مقاعد اتحادات الطلاب، يتعرفون عليك في بساطة ثم يجذبونك إليهم بالتزام محبب ويحيطون بك كسوار حول المعصم: رحلات وأناشيد ومحاضرات ودروس؛ تتغير اهتماماتك من شؤون حياتية محدودة إلى آفاق أرحب: فلسطين، أفغانستان، ثم البوسنة، لم أكن أحب تعقيدات الشيوعيين ولم أقتنع يوماً بأفكارهم؛ أراها مجرد أحقاد طبقية وكلما سمعت أحدهم ينقل كلام ماركس يصيبني النفور قبل أن أفهم ما يقول! لا بأس إذن من صحبة المصلين- ما لم تصحبها أخطار أمنية- يطبعون الكتب والمذكرات ويبيعونها بأسعار رمزية لجميع الطلبة، يدفعونك برفق احترافي إلى طريق الصلاة والإيمان، يعلمونك كيف تتلو القرآن بطريقة صحيحة، يهدونك كتباً تحلِّق

بك في عالم مثالي رائع، ويمنحونك من أوقاتهم أثمنها لا يبتغون منفعة؛ يجلس بعضهم معك ليشرح لك دروسك أو يصحبك في سفر ليروّح عنك! أصبحت لا أجد راحتي إلا معهم، سنوات حياتي من بداية المرحلة الثانوية وحتى وفاة أبي مضت على وتيرة منتظمة، حضرة الرفاعية، ضحك ومرح متصل مع أصدقاء المدرسة ثم الجامعة، عودة إلى البيت حيث الخلاف الدائم مع أبي ونعته المستمر لي بالفاشل! يخفف منه حنان أمي قبل وفاتها وحكايات سماح الضاحكة قبل أن تتزوج! تلك أكثر فترة التزمت فيها بالصلاة والفجر.

كما في الصورة يظهر أبو فهد بثوب خليجي ناصع البياض، يستقبله عمي بالأحضان الحارة وتستقبله زيونية بحفاوة بالغة لا تخبر أنه لقاؤهم الأول، تلقيت الصدمات فظهر استقبالي فاتراً، ابتسم الرجل وقال لي:

- لابد أنك علي، حدثني الدكتور عصام عنك، ارتبكت:

- أهلاً بك وسهلاً! جهزت لحضرتك مكان إقامة في فندق قريب وعدة مقابلات و.... فقاطعتني الحية لائمةً:

- ليس هذا وقته، ولا لزوم لأي فندق، يرتاح اليوم أولاً في بيتنا ثم تكلموا غداً عن تفاصيل العمل كما تشاؤون! اصطحبه عمي في سيارته الفخمة ومعهم زيونية ورجعتُ مع السيارة التي استأجرتها لمقابلته وعودته معنا، بعد ثلاث ساعات نصل جميعاً إلى القصر الذي لم أدخله قبلها! قلت: أدخل

خلفهم لأحيي الضيف، نجتاز البوابة فإذا بممر طويل مرصوف وعلى جانبيه حدائق خضراء زاخرة بتكعيبات العنب وأشجار الموز والنخيل ويفوح منها عبير الزهور! وحين شهقت لمرأى النافورة التي تتوسط كل هذا الجمال أثارت دهشتي السائق فضحك:

- أول مرة تزور عمك؟

- زرته كثيراً في بيته القديم، فقال:

- متّع نظرك، شُغل الآثار مربح أكثر من تجارة المخدرات! هزتني عبارته؛ الناس يعرفون عني وعن عمي كل شيء، لا أسرار في هذا البلد العجيب، لكن الكل يعلم، ويسكت! وفجأة أشار السائق إلى اليسار:

- لكن لا تؤاخذني، المال لا يجعل المرء أنظف! أشم رائحة كريهة تنبعث من البقعة التي أشار إليها وأنظر فإذا بقطيع من الماعز السوداء الهزيلة تأكل الزهور! ما أغرب النشاز وسط هذا الجمال!؟

أتلطف قدر استطاعتي:

- لا أستطيع أن أعيش بعيداً عنكِ ولو سويعات قليلة، فكيف تريدين أن أبتعد شهوراً؟ تبتسم في هدوء:

- ألم يكن ذلك اتفاقنا من البداية؟ فقلت راجياً:

- فلنغير اتفاقنا؟ هل أنت غاضبة لأني أحبك ولا أطيق ابتعادك عني؟

- وضّح كلامك، ماذا تريد بالضبط؟ فابتسمتُ:

- تأتين معي إلى مصر في أجازة طويلة، على أن نعود معاً بعدها إلى هنا من جديد، ضحكت ساخرة:

- لا يسمح عملي بذلك، وحتى لو سمحوا، كيف ستنتهي تلك الدائرة؟ فقلت:

- دائرة؟ ماذا تقصدين؟

- فكر معي، عملي لا يسمح إلا بإجازة لمدة شهر واحد سنوياً استنفدناها فعلاً في شهر العسل، وعملك لن يسمح لك بأكثر من أجازة لمدة شهر كل عام ولن يكون ذلك قبل سنة من الآن، فكيف ستقسم الوقت في بقية العام؟ تحيرتُ:

- تحصلين على أجازة طويلة- بضعة أشهر فقط- ولو بدون مرتب! دخلي جيد ولا نحتاج إلى نقودهم

- تعرف أن المال لا يهمني، وأن مرتبي أضعاف دخلك، ولا يسمحون بإجازات طويلة؛ إما العمل وإما الاستقالة، وعملي هو حياتي وموهبتي وعمري ولا أستطيع الاستغناء عنه، لم أخدعك وقلت لك ذلك مراراً! لن أترك عملي مهما حدث

- أعملك أهم من زوجك وبيتك؟ فقالت:

- ولماذا نصل إلى هذه المعادلة الصفرية؟ فلنفكر وسنجد حلاً إن شاء الله؛ حاول أنت أن تحصل على أجازة كل ثلاثة أشهر مثلاً حتى ولو استغنيت عن دخلك من الصيدلية خلالها! فقلت:

- لا لن أفعل، لن أستطيع الابتعاد عنك ثلاثة أشهر، ثم من يضحي بعمله؟ الرجل أم المرأة؟ فقالت بدلال:

- لا تعقد الأمور، دعك من نعرة المرأة والرجل، اهدأ حبيبي، دعنا نفكر بهدوء ونتكلم فيما بعد.

رغم وعود الضباط بأنهم لن يفرغوا أي شرائط من كاميرات المراقبة إلا بناءً على بلاغ صريح لكن تبقى تلك الكاميرات المثبتة في أغلب أركان الشقة عدا غرفة نومنا كرقيب سخيف دائم ثقيل، كيف ترتاح في ظل حياة مليئة بالمحاذير! تبسمت نادية واقترحَت:

- اعتبرها كالشيطان، تعجبتُ فقالت:

- ألم تقرأ في القرآن أنه يرانا هو وقبيلُه ولا نراهم!

مكالمة عاصفة لمصطفى كادت تنهي كل ما بيننا، بكلمات مرتبكة قلت:

- كلها شهر آخر ولن أزيد، فصرخ:

- يعني ثلاثة أشهر؟ فأغلقتُ الخط!

◉ ◉ ◉

القرابين!

أبي وعمي! في صباي كنت أرى أحدهما من بعيد فأظنه الآخر؛ أضاع عمي- الأصغر من والدي بعام- ميراثه من أبيه في القمار والخمر والمخدرات! يلقاني بعاصفة مُحببة من العناق والتحيات؛ يغدق عليّ الحلوى والمال ويشيد أمام الجميع برجولتي المبكرة وتفوقي الدراسي! ألجأ إليه حين يغضب أبي مني أو يقسم على ضربي؛ أرتمي باكياً في أحضانه فيسرع بتهدئتي ويربت على كتفي:

- لا تحزن، أبوك يحبك ولكنه يريد أن يجعل منك سيد الرجال، ثم يمضي معي إليه ليصلح الأمور!

أتخفى، أسير خلفهم، يتحرك الجمع بحذر تجاه مقابر القدماء تحت جنح ظلام دامس يخيفني ولكنه يخفيني! نتجاوز المصرف كريه الرائحة ثم مباني القرية وأشجار النخيل ونسير غرباً نحو أبو رواش، لا صوت إلا عواء الذئاب فوق قمة التلة وبعض همسات من الركب الحذر، عمي حجازي يتقدم ببندقيته الثقيلة، ويتبعه شيخ بظهر مقوس في قفطان مغربي أصفر يخفي غطاءُ رأسه ملامحَ وجهه بإحكام، وخلفهما يسير ممدوح مرتعداً ووراءه يسير منصور الرفاعي مردداً تعاويذ لا أدري أيتقرب بها إلى الله أم يبتعد! ثم غفيران من أتباع عمي يحملان (الكشّافات) أسير خلفهم بحذر وأردد سراً آية الكرسي وأوراد الحفظ من الشرور والخبائث، ماذا جاء بي؟ أهو الفضول

حول مصدر الثراء أم التطلع إلى معرفة أسرار عالم خفي؟ أم مجرد الإثارة والمغامرة؟

تحاول جارتنا الإيطالية إيزابيلا أن ترفه عني وقت غياب نادية الذي يمتد من الثامنة صباحاً وحتى السادسة مساءً؛ أرملة شقراء خمسينية دقيقة الفم لا أكف عن الضحك كلما رأيتها! رأس صغير مركب فوق كرة ضخمة من الشحم الرجراج! إذا تحركت أو ضحكت- كما تفعل دوماً- اهتز كل شيء فيها كاشفاً عن كومة هائلة من الترهلات المتموجة، هي بالضبط النوع الذي لا أفضله من النساء، أتمنَّع في البدايات، يعطيني جهلي شبه التام باللغة فرصة أن أضحك دون أن أحرجها، بعد قليل تألف الجو ثم تسأل نفسك: وما الضرر من قطع البيتزا الطازجة والحلوى في مقابل بعض القبلات البريئة! صدقةً عن صحتك لإسعاد عجوز في وقت الفراغ!

يقفون تجاه جدار يرتفع نحو متر من الأرض رُسمت على حافته طلاسم من لغة قديمة، يتلفتون فأختفي خلف جدار آخر، يطمئنون: لا أحد هناك، ويقول عمي:

- ترجم يا منصور، يقرأ الطلاسم ويهمس إليهم بالترجمة ثم يتقدم إلى اليسار خطوتين مشيراً إلى الأرض:

- هنا، يحفر الغفيران، يرتعد ممدوح- الذي حمل الكشافين- بشدة أكبر! من قلب الحفرة ينتصب ثعبانا كوبرا في حركة منتظمة مدروسة كأنهما يؤديان

تحية رسمية، يتراجع منصور ويتقدم الشيخ المغربي وكأنه يستمع إلى فحيحهما ثم يقول بصوت مبحوح كريه لا أعرف أهو لرجل أم امرأة:

- تقول الأفاعي إن بينكم غريب، ولكن لا بأس فإنه قريب! القربان دم طفل لم يبلغ الحلم! كدت أصرخ لكنني تمالكت نفسي في اللحظة الأخيرة! يرتعد ممدوح كالمحموم فتهتز بُقع الضياء ويحاول منصور تهدئته:

- الشغل شغل! يعود الصوت الكريه متوعداً:

- الذبح خلال ثلاثة أيام هنا على حافة القبر وإلا فلن تصلوا إلى الكنز أبداً!

ندت مني آهة مكتومة فالتفت الغفيران يبحثان عن مصدر الصوت، قال منصور بابتسامة خبيثة:

- ربما قطة! ينظر الغفيران في ترقب قبل أن يأمرهما عمي بإشارة:

- خلاص، هيا بنا.

يبكي الرفاعي الصغير لأول مرة أمامي؛ أتعجب:

- هون عليك يا صديقي، حتى عندما تم اعتقالك أيام الجامعة لم تكن بتلك الحالة؛ نزورك فنجدك مبتسماً في أحلك الظروف، يواصل بكاءه الذي يمزقني:

- إنه أبي كبير الرفاعية، لم أتصور أن تحبسه الأفاعي بهذه الصورة المهينة ثم يتخلى عنه الجميع- القريب قبل الغريب- رغم أنه لم يفعل إلا ما أملاه واجبه

- أتعجب مثلك وأكثر، لكن لا أحد يضمن نفوس الناس وأفعالهم، فقال:

- ألا تعرف تفسيراً؟

- التفسيرات كثيرة ولكني لا أريد أن أزيد آلامك، هتف يستحثني:

- أرجوك أخبرني، خذلان الجميع له يدمرني، كم أنفق من ماله ليطعم الفقراء ويساهم في علاج المرضى وكم ضحى بوقته وجهده في أعمال الخير

- اهدأ؛ لا شيء إلا ما تعرفه ويعرفه الجميع، الناس يخافون من الأفاعي ولا يجرؤون على مواجهتها، عصابة العمدة القديم ينشرون بين الناس أن أباك كان يريد أن يحصل على مكاسب من وراء إنقاذه للفتاة وأن ما فعله من أعمال الخير طوال حياته لم يكن خالصاً لوجه الله، يدفعون أموالاً طائلة لإسماعيل القهوجي وصبيانه ليشيعوا بين زبائن القهوة أنه مجرد مُدّعٍ للبطولة وأنه لو كان فيه الخير لما تركه قومه (الرفاعية) دون أن يدافعوا عنه وينقذوه من براثن الثعابين! ابتسم في مرارة:

- وعمك حجازي؟ اندهشتُ فأكمل: - فوجئتَ؟ أظنه العقل المدبر وراء كل تلك الأحداث!

أعود إلى كوابيسي المفزعة، هل يقتلون الأطفال حقاً؟ ربما لم أسمع جيداً، أتتبع الأخبار لكن كان عليَّ أن أجهز لحفل زفافي الذي اقترب، يجود عمي عليّ بعطاياه الثمينة وكأنه عاد سيرته الأولى:

- سافر يا حبيبي وتمتع بالدنيا مع عروسك لعل أعصابك تهدأ

يزداد إلحاح مصطفى وأفقد الأمل في إقناع نادية بأي حل يتيح بقاءنا معاً، في الليلة التي سبقت سفري حاولتُ معها للمرة الأخيرة، استعنت بكل دواوين الشعر وقواميس الحب، لا فائدة، رغم عطائها المحب شديد الكرم- أشهد- في تلك الليلة، صبت صنوف الحب عليّ صباً وتلقيتها هائماً مسحوراً! حب زوجة شابة يتركها حبيبها بعد ثلاثة أشهر عسل ملتهبة ليغيب عنها قرابة العام! لكن كان لابد من العودة إلى حياتي وعملي والهروب من ملاحقات إيزابيلا السخيفة!

هو حفيد الرفاعي، لكنه لم يمتلك مهارته في ترويض الثعابين ولا قدرته العجيبة على جمع الأنصار إلى صفه، أصاب ذيل الثعبان ولم يقطع رأسه وكان هذا الخطأ كفيلاً بهزيمته، للرجل كما للجميع أخطاؤه لكنه لم يكن شريراً كأبناء عمومته؛ منصور القاتل وعلاء الساحر! يشفع له أنه كان حريصاً على إنقاذ الطفلة ولا شك، وكما هي عادة الناس في بلدنا ظلوا يتحدثون ويتجادلون ولكن أحداً- وأنا منهم- لم يفكر في طريقة لإنقاذ المسكين ومضى بعضهم ينتقد شجاعته:

- نقض العهد القديم فاقتحم دور الأفاعي، يستحق ما جرى له

- جده الرفاعي القديم كان مجرد مشعوذ خدع الناس لحساب الثعابين والآن يريد أن يتخلص من حلفاء الأمس!

- وماذا تفعل الثعابين وقد هوجمت في عقر دارها؟ أدافع عنه بكلمات ضعيفة تغرق أمام سيول النقد، وبمرور الوقت نسي الناسُ الرجل وكأنهم استراحوا لغيابه ونسوا أنه لولاه بعد فضل الله لكانت (أمل) في عداد الموتى! وزاد بعض رجال الدين:

- الرجل مبتدع فاسق، وكل بدعة ضلالة، عاش الثعابين معنا مائتي عام لم نر منهم إلا الوفاء بالعهود وحينما ظهر الرفاعي الأخير انهار كل شيء! سألت عبودة عن رأيه ففاجأني:

- يقول شيخي البرهامي: دُر مع الأفاعي حيث دارت فإنها على الحق؛ لم يفز موسى على فرعون إلا بحيّة من تسخير الله! ثم جاءت شهادة إسماعيل القهوجي تنسف كل منطق:

- الرفاعية هم الأفاعي! إلا أن الأفاعي صادقة تأخذ رزقها فتكف أذاها! والرفاعي كذاب يستدر عطفنا وتأييدنا له بادعاء البطولة!

تخفي الصبغة شديدة السواد شيب شعر الرجل ولكن تجاعيد وجهه تفضح عمره الذي تجاوز العقد السادس، لم يصبر أبو فهد حتى نشتري أرضاً أو نستأجر المباني! يشتري بنايات جاهزة نقداً بأعلى سعر! خلال أشهر معدودة يفتتح معمل التحاليل الطبية- قبل المستشفى- ويجهزه بأحدث الآلات! بحكم قربي من الأحداث أكتشف أن هناك معملين! ضخم خلفي مستتر وصغير أمامي مُعلن! وسرعان ما يشتري مبنى مدرسة ويضع لافتة

المستشفى الخيري؛ تجهيزات سريعة ولقاءات مكوكية باستشاريين في كل فروع الطب وتعاقدات فورية بمرتبات مغرية، أساعد في الدعاية من أجل المحتاجين إلى من يعالج أمراضهم بسعر التكلفة! ومن أجل عزة وعصام ليستقرا في بلدهما، تتوالى مشاريع الخير! يقابلني صديقي القديم (حسن):

- ما شاء الله؛ مستشفى ومعمل، مركز للشباب لم تشهد منطقتنا مثله ومشغل للفتيات ثم دار أيتام في غاية النظافة والنظام! أجيبه فرحاً:

- أبو فهد يحفظ جميل المصريين، كلما تحدثت معه ذكر أفضال المعلمين والأطباء، ضحك وقال:

- أفضال؟ كل هذا الخير بسبب عمك حجازي والهانم ربنا يحفظهم!

تعلن أوراق الدعاية بالمساجد ولافتات الطرق أن كل أهل القرية مدعوون لعمل تحاليل طبية شاملة بأرخص الأسعار للاطمئنان على صحة الجميع؛ كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً؛ والتأكد من خلوهم من أمراض المصريين الشائعة: البلهارسيا والتهاب الكبد (سي) مع وعود تسير بها مكبرات الصوت وتعلو بها أصوات أئمة المساجد: ومن يثبت مرضه فسيتم علاجه تحت إشراف أطباء أكفاء بأفضل الأدوية؛ مجاناً!

إشاعات تملأ البلد فجأة حول جنون الرفاعية وسعيهم للانتقام من أهل القرية لأنهم تركوا الأفاعي يختطفون كبيرهم؛ والمصدر دوماً هم رجال عمي

الجالسون في مقهى إسماعيل، أسمع حواراً عجيباً بين بعضهم وبين عم جمعة الحلاق، يقول الغفير:

- وهل تصدق ذاك الكُهن؟ فيرد جمعة:

- يا عم طول عمرهم ناس طيبون، فيرد غفير آخر يجلس في الجهة المقابلة بصوت عالٍ:

- أنتم الطيبون يا خال، ستظلون هكذا حتى يقتل الرفاعية أولادكم في الشوارع ويغتصبوا نساءكم في البيوت! هتف جمعة:

- غير معقول، ولماذا؟ لم نفعل لهم شيئاً، فيرد ثالث من الجهة الخلفية:

- الرفاعية هم أصل كل المصائب؛ تعاهدوا قديماً مع الأفاعي من أجل مصلحة الفريقين، أما نحن فندفع صاغرين، فيعود الغفير الأول يؤكد:

- معلوم؛ الثعابين والرفاعية اتفقوا يمصوا دمنا، الأفاعي تأخذ الإتاوة وكل حين يطالبون بزيادة، والرفاعية يأخذون أموالنا ليخلصونا من الأفاعي ثم يطلقونها علينا من جديد، يضع فتح الله الشيشة أمام جمعة ويقسم:

- وحياة هذه النعمة الرفاعية يريدون خراب البلد! فيقول جمعة مذهولاً:

- يا وقعة سوداء، والله ما كنت أعرف، فيهتف الغفير الثاني:

- في داهية المال؛ لكن صدقوني يا إخواننا، سينتقمون لشيخهم بقتل أولادكم! مال الدنيا لا يساوي ظفر عيل من أولادنا! يهرش جمعة رأسه ويقول:

- لا إله إلا الله، والله ما نسكت لهم أبداً! كنت قد وصلت إلى مرحلة الصمت التام! من ينصف الرفاعية ولو بكلمة يضعه الجميع في قفص الاتهام: كيف تدافع عنهم؟ يأتي فتح الله بالشاي؛ يضعه أمامي ويرفع صوته لتصل رسالته إلى الجالسين:

- والله ما في أحد يخدم هذه البلد بإخلاص إلا عمك حجازي وزوجته الهانم

- أصيل يا فتّوح!

الهمس في الطرقات عن فساد الخليجي والرشاوي التي يقدمها- بمساعدة عمي- إلى البلدية والتراخيص ومسئولي المركز لتيسير أعماله تتناقض مع أقاويل أخرى أسمعها عند إسماعيل القهوجي حول طيبة الرجل وكرمه البالغ: يدفع من حر ماله لينفذ مشاريعه التي ستفيد أهلنا المساكين؛ فدفع الرشاوي هو للتعجيل بالخير للفقراء

- هذه مهارة، وهل يقضي أحد أي مصلحة في هذا البلد دون أن يدفع؟ أسألُ عبودة فيضحك بشدة:

- كله صحيح، هو كريم معطاء يغدق المال- الذي لم يتعب فيه- على الجميع، ولكنه كذلك يشتري كل ما يريد بالمال! ثم نظر إلى وكرر العبارة:

- كل ما يريد، أرمقه منتظراً أن يكمل فيضحك وسط سحابات الدخان:

- يحضرون له الساقطات، سكت لحظة ثم أكمل هامساً: والغلمان كل ليلة!

يعود عصام وعزة، بعد سلامات الشوق الطويل والعناق والقبلات واستقبال سماح الحافل لهم بوليمة الغداء المليئة بالبط وأصناف المحاشي أسألها:

- لماذا لم تخبريني أن أبو فهد يعرف عمي وزيونية؟

- لم أعرف إلا بعد وصوله، عصام خشي من رد فعلك، ثم ضحكت ساخرةً:

- لأنك تحب عمي وزوجته جداً.. كان عصام منهكاً تبدو عليه آثار إرهاق أكبر كثيراً من مجرد طيران ثلاث ساعات، آلمني اصفرار وجهه وملامحه التي زادت في عمره سنوات:

- ما لك يا دكتور؟ فيجيب بابتسامة واهنة:

- الغربة! وحين سألته عن بيت عائلته الذي اغتصبته زيونية مضى يتأوه بين عبارات غير مفهومة، لم أشأ أن أزيد آلامه فأدخلته غرفتي وتركته ينام!

أجلس بين يديه وكأني نويت التوبة حقاً، فيبادرني بسؤاله:

- ولماذا في ظنك جاءت زيونية فجأة بحقيبة أمك وسلمتها إليك؟ عقدت المفاجأة لساني فلم أكن أخبرته بالأمر فترددت ثم قلت:

- لا أدري، لكنها بادرة طيبة، ابتسم الشيخ كأنه يلوم سذاجتي ثم ألقى سؤاله الرهيب:

- لماذا لم تخبر أختيك باسترداد بعض كنوزكم؟ أنظر مندهشاً فيكمل:

- ميراث أمك يا عليّ! لم أجد رداً فأكمل: اعتبرته ملكك وحدك؟ فقلت مرتبكاً:

- بل قلت أصبر حتى يمكننا التصرف فيه، فقال لائماً:

- بل أردت الاحتفاظ بالكنز لنفسك، أفِق فلن يقبل الله توبتك قبل أن ترد كل حق لصاحبه!

يتوالى اختفاء الأطفال والشباب ثم يختفي الطفل (صابر) ابن العمدة (درويش) الذي تولى المنصب منذ بضعة أشهر، يستقيل عمي متخلياً عن دوره في حراسة القرية ويستقيل معه رجاله الأشداء:

- لن نعمل تحت قيادة هذا العمدة الضعيف! يكثر كلام الناس:

- لا يستطيع حماية نفسه ولا أهله ويتخلى عنه أهم رجاله فكيف يصلح لمنصب العمدة؟

دفء أبريل؛ بعد فترة كمونها الشتوي وتغيير جلدها تنتشر الأفاعي في كل مكان؛ تلدغ الأطفال في المدارس والطرقات، تخرج للناس في الحقول وتطاردهم في البيوت، يزداد عمي ثراءً وأبهة، تزداد الأفاعي شراسة فتقتل الكتاكيت ثم الدواجن والبهائم، تهاجم الجميع بجنون، فقط أتباع عمي وأصدقاؤه لا يصيبهم مكروه! تنتشر الجرذان وتستبيح البيوت والحقول! تدمر كل شيء وتنشر مزيداً من الأسقام! انقطعت مياه الشرب وضاقت الأرزاق وطالت فترات انقطاع الكهرباء، بعد الحديقة مبهجة الخضرة أصبح

بيتنا داخل أسواره غارقاً في اصفرار الصحراء واختفت الأزهار، الخوف جاثم على الصدور وخلف كل باب، واستسلم الناس لمصير محتوم!

أسائل نفسي عما جرى بيني وبين عمي، هل انقلبَ هو أم انقلبتُ أنا بعد وفاة أبي؛ أتكون الحيّة هي السبب؟ بعد الثراء الفاحش والقصر المهيب تتعاظم سطوته حتى أمام الضباط ورجال القضاء الذين كان يعاملهم قديماً ببالغ الاحترام ويؤدي التحية العسكرية إن مر أحدهم أمامه! الآن يجلس في سيارته الفخمة ويؤدون هم التحية إليه، يبدو التقدم ببلاغ إلى النيابة أخبرهم فيه بما سمعت ليلة المقبرة عبثاً لا جدوى منه!

أسأله متعجباً:

- (عم)! حبشي! ما حكايته؟ يرد باهتمام:

- يكبرنا بأكثر من عشرين عاماً، ابتسمت في استخفاف:

- كانت أمه عبدةً اشتراها جدي بماله، فقال:

- هو أيضاً لم ينسَ، ترك الأمر في نفسه جروحاً لم تندمل، سافر وأثبت عبقرية وتقدم في دراسته والتحق بجامعة كبرى

- ربنا يوفقه

- أصبح مديراً لشركة عالمية لمحطات المياه، ثم اختار بلدنا ليقيم عليها أهم مشاريعه، تعجبت:

- ما زلت لا أفهم، فقال:

- ألم تلاحظ أن مياه الري والشرب تقل تدريجياً

- بالتأكيد؛ لم تعد المياه تصلني - رغم سكني الأرضي- إلا بمحرك عدة ساعات كل ليلة، هل له علاقة بذلك؟ فابتسم:

- حاول مع العمدة درويش قبل حبسه ثم اتفق مع زوجة عمك ليدمروا ما تبقى من بلدنا؛ يساعده أصدقاؤها في المركز لإقامة مشاريعه دون رقابة، ويحوّل المياه إلى قصرها الجديد!

- بيت الشامي؟ ويهلكوننا عطشاً؟!

يحاول الشباب معي مرّات، أعتذر: لا يمكن، أنا عائد إلى زوجتي في روما!

- إذن سننتظر حتى تعود، لا تتأخر، البلد تنهار!

وكان عليّ أن أخوض معركة جديدة مع مصطفى... وخالي!

◉ ◉ ◉

القصر

عيد ميلاده؛ يستضيفني عبودة في فيلته الأنيقة، تدور الكؤوس وتقوم الفتيات بالرقص على أنغام موسيقى غربية عالية الإيقاع، حتى الوقورة سميحة تتمايل يمنة ويسرة، يبتسم صديقي وتزداد دهشتي حين تصل الفاتنة الشابة حنين شراقي؛ ما هذا الذي لا ترتديه! تأمر العازفين بثقة فيتوقفون وتهمس إلى قائدهم بدلال فيبدأ بتشغيل ألحان شرقية لأغنية شهيرة لأم كلثوم، تتلقى إيشارباً من إحدى الواقفات يتحول إلى حزام مثير وتبدأ في الرقص، الجميع يتراقصون ويغنّون حولها بحماس (ليلة حب حلوة.. بألف ليلة وليلة) وما زلت في دهشتي، يميل عبودة إليّ ويهمس راقصاً:

- ما لك؟ عِش اللحظة، أقول:

- ألم تكن سميحة وحنين من الموجودات في الحضرة؟ فضحك:

- وما المشكلة؟ ساعة لقلبك وساعة لربك، وربك والله رب قلوب! أتعجب:

- أراه تناقضاً عجيباً، فيقول موقناً:

- الإذن علامته التيسير! بعد لحظات يأتي شيخه فتزداد دهشتي؛ يندمج مع الحاضرين ويتمايل مع الراقصين، يبتسم عبودة ويشير إليّ مؤكداً:

- أرأيت؟ تأتي اللحظة المنتظرة ليقطع (التورتة) ومعه امرأة بفستان لامع عاري الظهر فيتبادلان القُبَل؛ يطفئان الشموع معاً وترفع صوتها مع الحاضرين بالأغنية الشهيرة (هابي بيرث داي تويو.. سنة حلوة يا جميل) ينتهي المشهد الصاخب فيشير إليّ ويقول لها:

- أعرفك بصديقي الجديد علي؛ أول مرة يحضر حفل عيد ميلادي، تمد يدها فأصافحها مرتبكاً ويقول لي:

- زوجتي، تريز!

حوادث متتالية على الطرق؛ اختفاء وغياب مفاجئ للأطفال والشباب، مياه مسممة مقطوعة غالباً، كهرباء غائبة أغلب الوقت وإن جاءت تأتي متذبذبة تفسد الأجهزة، خضروات رويت بنفايات الصرف، حر لافح رغم أننا في بدايات يونيو، حياة خانقة إن جاز أن نطلق عليها (حياة) وسهام اللوم مصوبة في اتجاه واحد؛ درويش والرفاعية! ألا ترون خطة واضحة لإفشاله؟ فليرحل؛ ربما أتى من يحكم قبضته فتتحسن المعيشة! أنسيت ثأر أبي أو أردت الابتعاد عن ذكراه؟ هل أتهرب من مواجهة جديدة مع مندوب الأفاعي أم هو تأجيل مؤقت لموعد محتوم؟ هل أحاول لم شمل أسرتي الصغيرة أم أشتاق إلى زوجتي المراوِغة؟ أياً كانت الأسباب فقد كان لابد من الرجوع.

رغم ضيقي المتصاعد من أسئلته القتالة لم أستطع أن أغادر قبل أن ألتقي به، يا لتلك الدار الهادئة المتواضعة؛ يفصل بابها بين عالَمين؛ نور وظلام؛ دنيا

داخلية صافية مسالمة تذوب في سكينتها كل كوابيس الأفاعي وظلمات الشر، ودنيا خارجية مليئة بالسموم والخيانات، يتلو آيات القرآن بخشوع فتدخل المعاني إلى قلبك قبل أن تعيها أذناك! يشير إليّ بالجلوس ولا أُلبّي؛ ما زلت غارقاً في دهشتي! من أين يأتي بهذا الصوت؟ يرتل (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فاستفهمتُ:

- وما المعنى؟ ابتسم:

- للناس أمانان من نزول العذاب؛ الأول وجود رسول الله بينهم، وهذا الأمر انقطع بانتقاله عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، والآخر أن يتوب الناس ويلزموا الاستغفار

- إذن نترك مشاغل الدنيا وأعمالها ونتفرغ للعبادة والاستغفار في المساجد؟ فتعجب:

- لينتصرَ حزب الشيطان! لا يا علي، بل نسعى في الأرض ونعمرها ونصلحها ونواجه شرور المفسدين بكل قوة ابتغاء مرضاة الله مع دوام التوبة والاستغفار

- سمعت هذا الكلام كثيراً

- إذن هذا أوان التنفيذ

- متى؟ سأعود إلى زوجتي، فابتسم في مرارة اهتز لها قلبي:

- وهل للاستغفار مكان أو زمان؟ اذهب وعُد، واحذر المعاصي؛ فستهلكك!

تبدأ خيوط المصائب كلها عند عمي أو زيونية! وتنتهي إلى آبار عميقة مسمومة من الغدر والقهر، خطة محكمة بالغة الدهاء، التخطيط جهنمي من زيونية، والتمويل خليجي من أبو فهد، والتنفيذ مصري بيد عمي! الناس يدعون لهم ظناً أنهم سبب الخير الذي جاء مع المعمل والمستشفى والمشغل والنادي ودار الأيتام، وإذا واجهت أحدهم:

- ألا ترى خراب البلد؟ قال:

- هم أفضل بالتأكيد من العمدة العاجز والرفاعي المغيب!

يملكون سجلات كاملة بكل أهل القرية وتفاصيل حالتهم الصحية وتقارير دقيقة بنتائج تحاليلهم، وهل يرفض أحدٌ الخدمات المجانية؟ إن لم تدفع ثمناً مقابل سلعة فأنت السلعة! تزيد حوادث اختطاف الأطفال والشباب، يتم العثور على جثة (صابر) ابن العمدة مشوهة، ألجأ إلى عبودة فيقول:

- لستَ غبياً لتفهم السر وراء كل ذلك؛ الجميع يفهمون ويتوقعون لكنهم خائفون لا يتكلمون، لكني سأهديك معلومة لا يعرفها عامة الناس

- أرجوك، فهمس

- جاءت تقارير الطب الشرعي بتأكيد شكوكك، اندهشت:

- أكمِل، فقال:

- الكلى والكبد منزوعة بعملية جراحية فائقة المهارة، والخياطة على جلد صابر عمل محترف خبير! وتعرف أن المستشفى تستقبل كل عدة أيام ثرياً عربياً جديداً!

كما قال؛ توقعت ذلك، لكن ما دور عصام؟ ألا يعرف أم هو مغلوب على أمره؟ خضع لابتزاز رخيص في غربته: تعمل معنا أو تفقد كل شيء؟

غياب أبو فهد شهرين عن مسرح الأحداث رغم إنه لم يسافر إلى بلده، ثم ظهوره المفاجئ والحيوية الواضحة التي أنارت وجهه جعلتني أوقن أنه حصل على أعضاء جديدة من يافع غض ردت إليه نضارة الحياة وأردت ابن بلدي المسكين! ماذا يريدون؟ وماذا يمكنني أن أفعل؟ يبتسم جذلاً:

- عرفت عن الصيدلية ما يسرني؛ سيكون بيننا عمل كثير، أستفهم فيشرح ببساطة فاجرة:

- سنحضر لك أقراص الترامادول بنصف الثمن ونسحبه من السوق (لنعطشه) من أجلك لتبيعه بضعف الثمن فتتضاعف مكاسبك! فقلت:

- لا أتاجر في الممنوعات، فضحك ساخراً:

- عروضي ليست قابلة للرفض!

أفهم شيئاً فشيئاً؛ المستشفى والمعامل واجهات جذابة لإجراء اختبارات التوافق وسرقة أعضاء من يصلح، النادي مصدر ثر للشباب الأصحاء،

ودار الأيتام تمنحهم أطفال مساكين لن يسأل عنهم أحد، وقتل الأطفال يضرب عدة طيور بحجر واحد؛ الرصد والأفاعي التي تحرس القبور تريد قرابين بشرية، ومُلّاك المستشفى يريدون أعضاء طازجة، تضم زيونية كل يوم أرضاً جديدة؛ أصبح اسم الجانب الشرقي من البلدة (عزبة الهانم)

يحاول مصطفى معي:

- ولِمَ السفر والعودة كل بضعة أسابيع؟ فلتعِش معك هنا ككل المتزوجين

- حاولت معها كثيراً، ليت الأمر بيدي! يرتب لقاءً مع خالي فأستجيب صاغراً.

تلح أختاي:

- لابد أن تخبر عمك أنك ستعود إلى إيطاليا، قلت متعجباً:

- وما علاقته بحياتي؟ قالت عزة:

- مجرد زيارة قصيرة؛ تخبره بنيتك في العودة وتسلم عليه، أكملت سماح:

- صدقني عمك يحبك، ضحكتُ في مرارة:

- أما زلت تصدقين تلك الروايات الساذجة؟ لا يهتم عمك إلا بنفسه وثروته، أم أن الأخ ممدوح أقنعك أن عمك هو رجل البر والتقوى؟ فقالت

عزة:

- كفاك سخرية، أرجوك اذهب ولن تخسر شيئاً.. كدت أصرخ فيهما: عمكم لم يعد مجرد لص محترف ولا نبّاش قبور يتاجر في الآثار فيثري بالحرام، عمكم سفاح يقتل الأطفال ليزيد ثروته! ربتت سماح على كتفي بحنان وهي تتمتم:

- ربنا يهديك، اذهب من أجلنا! وقالت عزة:

- لو كان عمك يكرهنا لما عرضوا على عصام مبلغاً كبيراً لشراء بيت الشامي، فابتسمت ساخراً:

- وعندما رفض أحرقوه لتغتصب الخادمة بيت أسيادها! فأجابت:

- ذهب الماضي ولن يعود!

كلما زرت قصر الأمشاطية يتكرر عندي ذلك الإحساس بالهيبة الممزوجة بالدفء، الأبهة الكريمة مع الحب الخالص، يلومني خالي بلهجة لم أعتدها:

- ماذا تريد يا علي؟ قل لي ما الذي يرضيك؟

- مجبر لا بطل، لا أستطيع الابتعاد عن نادية ولا تريد ترك عملها، فابتسم:

- أهذا كل شيء؟

- نعم

- لو استجاب كل رجل لأهواء زوجته لما بقي أحد في عمله، الصيدلية في حاجة إليك، تستطيع لو أردتَ أن تسوي أمورك معها، أم أنك تهرب من شيء ما؟

- ومِمَ أهرب؟

- من البحث عن الأفعى المجهولة التي قتلت والدك مثلاً! يتجهم وجهي:

- ولن أترك ثأري! يبتسم:

- فليكن، لن أجادلك حول هذه الأوهام، اسمع يا بني، جاء جدي الأمشاطي الأكبر واستقر في هذه البلاد قبل قرنين من الزمان فهربت زوجته إلى أهلها في إسطنبول وتركت أولادها معه فلم يتراجع وتزوج بأخرى، وظل أولاده وأحفاده محافظين على وجودهم هنا رغم تغير الأحوال وتكرار دعوات أخوالهم بالعودة والاستقرار، انهدم القصر مرتين فلم يتركوه وأقاموا بناءهم من جديد أقوى وأفضل، فقلت:

- ماذا تقصد يا خالي؟

- لا وطن يعادل مصر يا علي، أحضر زوجتك لتعيشا هنا، ابتسمت متعجباً:

- رغم كل هذه الظروف؟ صارت الحياة هنا جحيماً لا يطاق، استفزتني ابتسامته الساخرة فانفجرت: يا خالي نشرب مياه ملوثة ونأكل لحم الحمير والكلاب والخضروات الفاسدة والقمح المسرطن، نموت بالآلاف في العبّارات والقطارات دون مغيث، لا كرامة ولا آدمية ولا مستقبل ولا تعليم ولا صحة ولا قانون ولا طرق ولا مياه ولا كهرباء، كل الناس يبحثون عن هجرة أو فرصة للمغادرة! فقال:

- وهل تريد الهجرة والاستقرار في بلد آخر؟

- لا أستطيع

- رغم كل الظروف، مصر- بأهلها- أفضل مكان للحياة! هل تريد أن يكون أولادك القادمون غرباء بيننا مثل حماس وجهاد؟ هززت رأسي غير مقتنع وقلت في نفسي: عاطفة قوية لا علاقة لها بالواقع من رجل طيب لا يعاني، أردت أن أغير دفة الحديث فسألته:

- ومتى وكيف تم الهدمان؟ فابتسم:

- سأخبرك يا ذكي، المرة الأولى كانت مع بدايات الاحتلال الإنجليزي، بعد ما يقرب من ثمانين عاماً من إقامة القصر، أصابته قذائف نارية كانت تطارد بعض طلاب الأزهر الثائرين ضد المحتل

- أكانت الضربات مؤثرة إلى تلك الدرجة؟

- كانوا يختبؤون داخل قصرنا، أبديت اندهاشاً فأكمل:

- لا تتعجب، صرنا مصريين خلصاء

- والهدم الآخر؟ فقال:

- هذا حديث نسبياً، عام النكسة، فجأة انهار البيت ولكني أعدت بناءه مع والدي!

- لم يتحمل الصدمة!

- اذهب وعد بسرعة ومعك زوجتك، ثم أمسك بكتفيّ وأكمل: ولا تصرخ في وجه خالك مرةً أخرى!

يستقبلني ممدوح في بيته الجديد بوجه ضامر وزرقة تحت عينيه وقهوة لا تنقطع وسجائر يشعل التالية ببقايا السابقة! سألته:

- مالك؟ هل أنت مريض؟

- ادخل في الموضوع، ماذا جاء بك؟ تعجبت:

- علمت بما يحدث

- أعرف ويعرفون؛ تتبعتنا ليلة المقبرة! اندهشت:

- وفهمت كيف يدير عمي لعبة السرقة والقتل، فضحك ساخراً:

- لم تفهم شيئاً، لا يدير اللعبة إلا الهانم! الباقون جميعاً صبيان تحت أقدامها، زاد تعجبي:

- ولنفرض، كيف تستمر مع هؤلاء المجرمين؟ هل ترضى أن يخطف أحدهم ابنك ويقتله؟ اهتز فنجان القهوة بين أصابعه بعنف فوضعه على الطبق وقال:

- لا يدفعني للبقاء معهم إلا خوفي على حياة أمي وزوجتي وأولادي، لا تضطرني لقول ما لا تُحمد عواقبه، دعني لعذابي الدائم! ثم أحسست صدقه وهو يبكي:

- أفكر في الانتحار كل ليلة، أحاول تهدئته:

- ولماذا؟ تستطيع أن تتجنب كل هذا الغم، فابتسم بمرارة:

- وكيف؟

- خذ أهلك وابتعد، فإذا به ينتفض:

- ليقتلونا جميعاً! صدقني؛ حتى أمي الضريرة سيقتلونها!

- تبالغ جداً، كيف تستسلم هكذا؟ لابد من مهرب، ضحك بألم وسأل:

- تشرب قهوة؟

- لا أريد، صرخ:

- يا سماح هاتي لي فنجان قهوة، أحضرتها بابتسامة واهنة وعيون مشفقة ووضعتها أمامه ثم خرجت صامتة، فقال:

- ولماذا تقف أنت مكتوفاً أمام كل تلك الجرائم؟ الناس يظنونك شريكاً لعمك ولعصام، صرختُ في وجهه:

- أجُنِنت؟ ماذا تقول؟ ورفعت يدي فأمسكها بقوة وقال:

- لستَ أفضل مني يا علي، لكن لديك فرصة للرحيل، ارجع إلى زوجتك، اذهب ولا تعد!

يستقبلني عمي بحفاوة، يلاحظ عبوسي فيسأل:

- مالك يا غالي؟ أبتسم بمرارة وأرد بسخافة مقصودة:

- لا شيء، مشاكل مع نادية ولابد من العودة إلى روما، ابتسم:

- لا يهمك، أتريد مالاً؟

- خيرك سابق، نظر إليّ وقال هامساً:

- أعرف أنك لم تعد تحبني، لكني أشعر باقتراب الأجل، أنا من طلبت من أختيك دفعك لزيارتي، لماذا لا تعود المياه إلى مجاريها بيننا؟ أنت ابن أخي، نظرت بقوة في عينيه:

- البلد تنهار يا عمي، الأطفال يُختطفون ويُقتلون وتُسرق أعضاؤهم، الأفاعي تهدد الجميع، الآثار تُنهب والقبور تُنبش، بيوت العائلات العريقة تُحرق وتُهدم لتباع للكلاب، الماء صار شحيحاً، والناس يتكلمون عن صلتك بكل ذلك! نظر متألماً ثم همس مشيراً كي لا أسترسل في الحديث:

- اهدأ، صمت حتى جاؤوا بالشاي ثم قال متلفتاً: انتظر! ثم همس من جديد:

- اشرب واسمعني، كل ما ذكرتَه صحيح، لكن لم يكن بيدي خيار، تهددني زيونية دوماً وتجبرني على السير في تلك الطريق المظلمة! حملقت:

- وما الذي منعك من المقاومة والرفض؟

- وما الذي منع أباك؛ أخي وحبيبي؟ فسألته:

- ألا تحبها؟ فضحك:

- ولم ولن يحبها أحد، وهل يحب أحدٌ السرطان؟ يهاجمك فلا يتركك إلا جثة هامدة، كدت أصرخ ولكني تماسكت فقلت بهدوء:

- لا يقنعني كلامك، ليست هي ربنا لتمسك بكل الخيوط وتحرك كل الأحداث، فهمس وجلاً:

- ليست ربنا ولكنها إرادة ربنا!

- لو لم تستجب لها لما حدث كل ذلك، فضغط على كلماته الواهنة:

- لو لم أستجب لها لحطمت حياتك وقتلتك وقتلت أختيك وأولادهما وقتلتني وجاءت بغيري ينفذ كل رغباتها، صدقني لقد أنقذتك وأنقذت بلدنا بزواجي منها، اخترت أخف الأضرار! ابتسمت ساخراً:

- أعذار أقبح من الذنوب، صنعتم منها أسطورة وصدقتموها، نسمع وقع أقدام فيهمس:

- ترى جزءاً منقوصاً من الحقيقة، زُرني ثانيةً عندما تعود من سفرك وسأحكي لك كل شيء؛ لو كنتُ ما زلت حياً!

◉ ◉ ◉

عادل

يوليو، يزداد نشاط الأفاعي الجنوني؛ القتل بطريقتين؛ لدغة السم وعصر الضحايا! أما الإصابة بالعمى فببخّ السم في العيون مباشرةً!

تدهشني تصرفاتها العجيبة؛ ربما لأنها- من الفنانات- الوحيدة التي شاهدتها عن قُرب، يخبرني عبودة:

- الفنون جنون! انتظر عن حنين مفاجآت قريبة!

- وماذا يفاجئني؟ رأيتها خاشعة في حضرة البرهامية ثم رأيتها ترقص شبه عارية ليلة حفلتك، فضحك:

- هكذا الدنيا يا صديقي، أعدك بمزيد من الدهشة!

قبل سفري بعدة ليال يأتيني اتصال، أرد:

- مَن؟ يأتيني صوته المميز بضحكته العالية:

- حبيبي ونسيبي! أهتف:

- طُلبة! أين أراضيك؟

- العلم يا صديقي، أحضر للدكتوراه في المحاسبة من بريطانيا، أتيتُ في أجازة قصيرة وأريد أن أراك، تذكرت رسوبه القديم فابتسمت:

- عظيم، لكن تنبه، وقتي ضيق وأجهز للعودة إلى قريبتك في روما

- علمت بذلك، لابد أن أراك قبل سفرك! أقلقتني لهجته فقلت:

- في بيتكم في (أبو رواش)

- بل سآتيك أنا في كفر حكيم! غداً الثامنة مساءً.

رغم رنة الصدق في كلماته تأتي أحداث الواقع لتكذب أمنياتي حول عمي؛ أكان ضحية مؤامرة لا فكاك منها؟ الاختطاف وقتل مزيد من الأطفال والعثور على جثث مشوهة يزداد ضراوة، صارت الجرائم علنية؛ القتل والاختطاف مقصور على أبناء من يُعرف عنهم شبهة اعتراض على ما يجري! أرعبني تهديد (أبو فهد) المبطن بالسخرية، سفري حل مثالي لأتجنب عواقب رفضي لعرضه السخي بشأن المخدرات! لكن ماذا سأفعل حين أعود؟ فلأسافر الآن ولعل الله يُحدث بعد ذلك أمراً، وهل سيترك الصيدلية أثناء غيابي؟ يحصل على ما يريد في الحال! اطمأننت قليلاً لثقتي في مصطفى واتزانه، ورامي- رغم ضيقي منه- جادّ لا يساوم في تلك الأمور، هل كان عمي صادقاً؟ وما الضغوط التي تعرّض لها ليرضخ للحرباء!

تحمل الصحف عناوين مثيرة (حنين شراقي ترتبط بثري عربي) (فاتنة الثوب الأحمر تعتزل الفن وتتحجب) (هل تتخلى حنين عن أدوار الإغراء؟) ثم (ليلة زفاف أسطورية: الفن مقابل النفط) يُذكّرني عبودة:

- قلت لك انتظر مفاجآتها المجنونة

- كثير من الفنانات يعتزلن ويتحجبن، فضحك:

- ويكون ذلك بسبب الارتباط بمليارديرات الخليج!

- وربما توبة صادقة، ازداد ضحكه سخريةً حتى كدت أغضب، أشار إلى الصبي:

- فتّوح، حبيب قلبي، تعميرة قوية وحياة أبيك! يتمهل حتى يحضر فتح الله التعميرة المعتبرة، يأخذ أنفاساً متتالية بنشوة عالية السعال ثم يقول:

- لم أرَ أكثر سذاجةً- سامحني- منك يا صديقي

- ماذا تقصد؟ فضحك:

- صاحبك هو من تزوج حنين، أُتعجب:

- صاحبي! مَن؟ يضحك أكثر:

- أبو فهد يا حبيبي، وفتح لها شركة إنتاج سينمائي بالملايين!

يأتي عادل كعادته في موعده تماماً، يدق الجرس فأرد على (الدكتافون) وأضغط زر فتح البوابة:

- اُدخل

- اخرج نجلس في الحديقة، مللت من الحبس بين الجدران، استجبت لطلبه مُتردداً وخرجت لأعانقه بالود القديم:

- ما هذه الأناقة؟ أوروبا غيرتك

- بل غيرتك أنت

- عندك حق، كلنا نتغير مع الزمن

- وآه من الزمن، تعجبت من تأثره:

- تعال اجلس هنا، معذرةً؛ أهملتُ الحديقة ككل شيء! لماذا طلبتَ الجلوس خارج البيت؟ نفضت الكرسي الهزاز متهالك التنجيد فثار الغبار، ابتسم وجلس:

- وهل الداخل أفضل حالاً؟ كنت أظن رائحة المانجو ونسمات الهواء ما زالت هنا! ما أخبارك؟

- ثوانٍ وأعود، عدت بالشاي:

- وهل أتيت بعد تلك الغيبة لتسأل عن أخباري؟

- كنت أطمئن عليك من حماتك

- تسأل عن نادية، فقال:

- صحيح، وعنك أيضاً، لها معزة خاصة في قلبي؛ نشَأَت يتيمة، والدها أنقذ حياة أبي ودفع حياته ثمناً

- نعم أخبرتني بالقصة

- إذن تتفهم اهتمامي الخاص بها

- طبعاً، أنتما أخوان، ولكن ادخل في الموضوع، ابتسم:

- هذا هو الموضوع، لم أكن في مصر عندما تزوجتما، أحسست أن وصيتي الهاتفية لك بالاهتمام بها ستضيع كتلك العبارات التقليدية، أحببت أن أقابلك بنفسي لأقول لك: حافظ عليها؛ تبدو قوية مستقلة لكنها في غاية الرقة، اندهشت:

- لا أفهم، هل شكت إليك مني؟ فضحك:

- لا والله، لكن زواجكم في الشتاء أشعرني ببعض طمأنينة تكاد تزول مع قدوم الصيف! هتفتُ:

- ماذا تقول؟ هل تهذي؟ أنت سكران؟

- توقفت عن الشرب منذ سنوات ولزمت المساجد

- مبروك؛ لكن كلامك- اسمح لي- كلام سكارى

- أوصيك بها خيراً، فهل هذا غريب؟

- وكلامك عن الصيف والشتاء أغرب، لم يُجب ولكنه بدا قلقاً ثم أدار دفة الحديث فجأة:

- أين كان أبوك حين لدغه الثعبان؟

- على هذه المصطبة خلفك تماماً، ولكن لماذا تغير الموضوع؟

- ليس هناك موضوع، هل تذكر أين كنتَ وقت وفاته؟ فتعجبتُ:

- أهو تحقيق؟ فردّ:

- أما زلت تبحث عن قاتل أبيك؟ فنظرت إليه بعينين متسعتين إلى حدهما الأقصى:

- وهل تعرف عنه شيئاً؟ فابتسم:

- لا، مجرد سؤال، يدهشني ادعاؤك أنك تبحث عن تلك الحية، ويدهشني أكثر أنك لا تبذل- فيما أعلم- جهداً حقيقياً للوصول إليها! حيرتني ألغازه فقلت:

- طلبة، أرجوك، قل ما عندك، وضع كوب الشاي على الطاولة وقال:

- وهل ستواصل هروبك؟

- ماذا تقصد؟

- تسافر ثم تعود ثم تسافر وهكذا! تعجبتُ:

- طلبة!

- أتذكر الشاب السيناوي الذي أنقذك ليلة الطريشة؟

- نعم؛ بطل لا يُنسى، عبس فجأة:

- هو يسلم عليك، التقيت به منذ أيام

- كنتَ في سيناء؟ فقال:

- بل قابلته أمام دار القضاء العالي، كان يقف في مظاهرة تطالب بوقف هدم بيوتهم، كان غاضباً من قطع أشجار الزيتون أكثر من غضبه من هدم البيوت، ابتسمت:

- وما زال يذكرني!

- يذكرك جيداً، يقول إن نجاتك من لدغة الطريشة حدثٌ نادر ربما لا يتكرر في عمره مرةً أخرى! وسيظل يحكي لأولاده وأحفاده كيف أنقذك دون بتر!

فابتسمت:

- فيه الخير، فعاد من جديد:

- أوصيك بنادية خيراً؛ فهي تحبك بصدق!

أعود إلى أحضانها فتستقبلني كما يليق وأكثر؛ تغدق عليّ الحب وأرد باشتياق جارف، أيام ثم نعود إلى الحياة نفسها؛ عمل نادية يلتهم أغلب وقتها، وتعود إيزابيلا لكرمها الباذخ من جديد، أتسلى بمرآها المضحك وأرد أفضالها بقبلات خالية من المشاعر - اللهم إلا الشفقة- ما زالت ثقافة نادية تبهرني مع كل نقاش، تفتح النافذة صباح يوم أجازتها فنتلقى هدايا الشمس الذهبية المنعشة، تبتسم:

- أتعرف (أبو فيس)؟ أرد:

- أهو اسم فرعوني؟

- الحية المتوحشة، كانت تحاول أن تمنع الشمس من الشروق كل يوم

- وبعد؟

- كان أجدادنا يصنعون حية من الشمع يكتبون عليها (أبوفيس) ويتلون عليها التعاويذ كل ليلة ثم يحرقونها فتشرق الشمس على أرض مصر من جديد!

- الحمد لله، فقالت فجأة:

- أما زال النيل يجري؟ اندهشتُ:

- وما الذي سيمنعه؟ فابتسمت في قلق:

- اعتبر المصريون القدماء العدو الرئيسي ل(رع) هو ثعبان ضخم شرير (أبب) يأتي في الظلام ليبتلع ماء النيل؟ ارتجفت:

- أساطير، هزني ردها:

- وربما تحذيرات أو تنبؤات! لا يمكنك تصور حكمة الشعوب القديمة!

استاكوزا فاجرة وجمبري فاخر وشرائح شهية من سمك السالمون مع الاسباجتي، شراب قوي ولمسات حنان تزف قبلاتها المتوالية، صورة زوجها الراحل بالشريط المائل الأسود تواجه باب غرفة النوم وفوقها صليب ذهبي ضخم؛ لم أفعل شيئاً إلا أنني أسلمت لها نفسي ثملاً في غفوة لذيذة، أفقتُ فوجدتُني فوق سريرها وهي بجواري عارية تغط في نوم ثقيل، صرختُ:

- إيزابيلا، ماذا حدث؟ فتثاقلَت بدلال أُنثوي لا يليق بهيئتها:

- حبيبي، يا لك من ماكر، ألا تعرف ما حدث؟ لملمت ثيابي وخرجت مرتعداً!

نقاش جديد، تتوالى القذائف:

- فاض الكيل، اتركي عملك ونعود معاً إلى بلدنا

- اترك أنت عملك وتعال هنا؛ لديك إقامة قانونية والأطباء البيطريون مطلوبون بدخل ممتاز

- لا أستطيع

- ولن أترك عملي، أزمجر:

- والحل؟

- نفكر من جديد

أتصل بمصطفى:

- أخبارك؟ يرد بوهن:

- حاول أبو فهد أن يفاوض رامي ليدخل بعض الأدوية المهربة بمكاسب كبيرة

- توقعت ذلك، حاول معي أيضاً

- لم تخبرني، فاعتذرت:

- تعرف مشاغل التجهيز للسفر، ولكن ماذا فعلتم؟

- رفضنا، فعرض عليّ شراء الصيدلية بسعر خرافي

- وهل ستبيع؟ فقال:

- فاجأني العرض، لكن السعر مغرٍ جداً، ما رأيك أنت؟

- لم يخطر ذلك على بالي

- فكر معي فأنت شريكي ولن أبيع دون موافقتك.

ليال من التفكير؛ ها قد جاء الحل على طبق من الذهب، نبيع الصيدلية بالسعر المعروض، أحصل على نصيبي الوافر وأعود لأعيش مع نادية وليذهب كل شيء إلى الجحيم، وهل ستنسى ثأر أبيك؟ وهل أقضي عمري أبحث عن سراب؟ أكنت مدعياً كاذباً؟ بل كنت صادقاً لكن لم تسعفني الظروف! يتصل بي مجدداً:

- لن أبيع، فقلت أخفي الحسرة:

- الأمر بيدك، ولكن هل فكرت جيداً؟

- يظن أنه يستطيع شراء أي شيء بأمواله، السعر مبالغ فيه جداً ويؤكد شكوكي أنه سيستخدم الصيدلية في أغراضه السافلة! لن أبيع ولو دفع أموال الدنيا!

طرقات منتظمة على الباب بعد جرس قصير؛ تفتح نادية فتجد رجال الشرطة بزيهم الرسمي، أستفهم منها فتترجم ما يقولون:

- تعرضت شقة السنيور رافيني في الطابق العلوي للسرقة ويريدون أن يفرغوا محتويات الكاميرات المثبتة فوق باب شقتنا، هززت رأسي مستسلماً، تبادلَت معهم بعض العبارات ثم قالت:

- طلبوا أن نذهب إليهم للتحقيق مساء الغد. ارتعبتُ!

- انتهى كل شيء

- ماذا تقصد يا مصطفى؟ يرد بصوت بائس:

- أبلغني بسفالة أنه سيأخذ الصيدلية على أي حال؛ إما بالمبلغ الوهمي الذي عرضه وإما أن يحرقها ويحصل عليها رخيصة! كدت أرفض لكن أبي تدخل خوفاً عليَّ وأمرني بإتمام البيع، تعرف ما حدث مع الدكتور عصام!

- هذه طريقتهم؛ تستجيب لهم أو يدمرونك! هوِّن عليك، يمكنك أن تفتتح صيدلية أخرى في أي مكان، فلم يرد.

حدث ما خشيته؛ أفرغوا الكاميرات فشاهدتني نادية أُقبِّل المرأة البرميلية في الطرقة التي تفصل بين الشقتين ثم أدخل شقتها! عُدنا وأنا أتوقع المعركة! تقود السيارة صامتة لكن نظراتها تحمل الكثير، أحاول الكلام فتشير بيدها أن أسكت، نصعد فتتمهل مخفيةً غليان صدرها وأرتب الردود؛ سأعتذر كما لم أعتذر من قبل، لا بأس من إغراقها بقبلات حانية بينما تتوالى صفعاتها وتنتزع يديّ من حول خصرها بأقصى قوة، سأستعطفها؛ لا أحب غيرك، مجرد قبلات بريئة لا تعني شيئاً في مجتمع يعتبرها مسألة طبيعية، غلطة؛ وماذا كنت أفعل وأنت غائبة عني في اليوم عشر ساعات، أرأيتِ أهمية أن نعيش معاً ولا تغيبي عني كل هذه الأوقات؟ أتخيلها وقد انفجرت غضباً وغيرة فأبتسم مشفقاً على نفسي، سأخبرها بأمر البيع وأنني سأغدق عليها المال وأنني أخيراً سأستجيب لرغبتها وأقيم معها بروما، سأحضر لها هدية ذهبية وعطوراً ثمينة ووروداً كثيرة، نصل فتدخل غرفة النوم وتغلقها خلفها، أطرق الباب على استحياء فتجيب:

- انتظر، أصابني نزيف مفاجئ! طرقتُ بقوة:

- ألف سلامة عليكِ، هل أحضر لك طبيباً؟

- لا، بسيطة

لحظات تمر كسنين، تفتح الباب وهي ترتدي (الروب) الشتوي الثقيل وتميل إلى الأمام كأنها ستتقيأ، وتقول:

- طلقني!

◉ ◉ ◉

الخيانة!

سألني عبودة:

- وما الذي جعلك تستمر مع الرفاعية وتترك (الإخوة) زملاء الجامعة؟

- وجدت لا فرق! فاندهش:

- كيف؟ أتقصد أنهم مثل الرفاعية؟

- أخذت قراري بعد أن قرأت كتب الشيخ سعيد حوَّى، ذكر الرفاعية وأثنى عليهم، وزعم أن لهم كرامات منها أن أحدهم يُضرب بالسيف في ظهره حتى ينفذ من صدره، ثم يُنزع منه ولا يتأثر

- صدق الرجل، وأنت بنفسك شاهدت مثل هذه العجائب كثيراً

- لكنه دعاية للمشعوذين، فتعجب:

- سبحان الله! إذا كنت تراها شعوذة ألم يكن الرفاعية أجدر بالابتعاد؟ فقلت:

- ابتعدت عن المشعوذين منهم، لكن ظللت على صلتي بالشرفاء كالشيخ أحمد الرفاعي وابنه!

يعود الزمن إلى هيئته! الآن أتذكر ما كان بترتيبه الطبيعي لا كدفقات ذكريات عشوائية تأتيني على هواها! ما الذي جعلها تتقافز أولاً ثم تعود إلى سجيتها المنتظمة من جديد؟ أكانت عشوائية حقاً؟ أم كان ذلك التغير علامة

على شيء جديد، أم كان انتقالاً من حالٍ إلى حال؟ وما الجدوى من كل تلك التحوُّلات؟

أحاول معها مرات ومرات؛ تشيح بوجهها وتعيد الكلمة المستفزة ذاتها:

- طلقني! أدور حولها وهي راقدة على أريكتها المفضلة في منتصف الصالة، أحاول بطريقة أخرى:

- ومَن إيزابيلا تلك التي تقارنين نفسكِ بها؟ ألا ترين أنها كومة من الشحم البارد؟ وهل يمكن لعاقل أن يتخيل أنني أقيم مع مثلها علاقة وعندي هذا القمر؟ لا ترد فأواصل:

- إنها لا شيء! حبيبتي، فلنعتبرها غلطة! أنا مخطئ وأستحق كل ما تحكمين به عليّ، سأخبرك بشيء، لن أتركك بعد اليوم أبداً، سأصفي أعمالي في مصر وسأخبر مصطفى أن يبيع الصيدلية أو يشتري نصيبي وسنأخذ المال وأبقى معك هنا، أليس هذا ما كنت تريدين؟ تنظر إلى الزاوية التي تنتصف المسافة بين باب المطبخ والحمّام ثم تقول:

- طلقني، لو عندك بقية كرامة! تستفزني فأصرخ:

- من تظنين نفسك؟ أنا زوجك ولم أفعل شيئاً يستحق كل هذا الغضب، اعقلي وكفي عن هذه الكلمة البغيضة فلن أطلقك مهما حدث، تأخذها ارتعاشات متوالية ثم تحاول إخفاء دموعها التي انسابت فجأة بعد ساعات من المقاومة العنيدة، أحاول الاقتراب وأمد يدي بطريقة حانية فتتوعد:

- إياك أن تلمسني؛ طلقني وحسب! تمالكت نفسي:

- أرجوك قولي شيئاً آخر

- لا أريد إلا الطلاق، هتفت:

- لا تدعي تلك التافهة تدمر حياتك، فابتسمت بمرارة:

- أنت من دمر كل شيء، المشكلة عندك أنت، ألا تفهم؟

- لا والله تركت لكِ الفهم كله، ممكن تتكرمي وتفهميني بهدوء، نظرت في عيني مباشرةً ثم انهمرت القذائف:

- تسخر من كلامي؟ اسمع؛ لم تحبني لحظة واحدة يا علي، ثم أكملت تضغط على كل حرف:

أنت مريض لا آمن على نفسي معك، قل لي من أنت يا علي؟ الإنسان الشريف الذي يرفض ظلم عمه وزوجته لأهل بلده.. أم أنت شريك في جرائمهم؟ تحب أختيك.. أم تسرق ميراثهما؟ تبحث عن ثأر أبيك.. أم نسيت الأمر كله؟ الملتزم صاحب الصلوات والأذكار.. أم مدمن الخمر والحشيش في غرزة القهوجي؟ تفضل صحبة مصطفى والرفاعي وعادل.. أم عبودة وشلة الخُنّ؟ العاشق المتيم بغرامي.. أم فقط مُعجب بمظهري وملامحي؟ إنسان عصري متحضر.. أم أنك رجعي تزوجتني لتتحكم بي؟ الزوج المخلص.. أم الخائن الآثم؟ أعيش مع رجل لا أعرفه، أتعلمُ أنك حين تنام لا تغلق عينيك؟ أصبحت أخاف منك!

حمدت الله؛ لم تذكر تجارة الأدوية المخدرة، فقلت:

- ما هذا الكلام الفارغ؟ أنا أحبك

- بل ما زلت تحمل ذكريات حب قديم، اندهشت:

- أي حب؟

- ابنة الرفاعي؛ قل الحقيقة يا علي، ما زال قلبك معلقاً بها

- ما هذه الأوهام؟ بل نسيتها عندما رأيتك أول مرة تدخلين الصيدلية فانتقل قلبي من دعاء إلى نادية وسأظل أحبك ولن أحب سواكِ، أحببتك حتى نسيت ثأر أبي، أحببتك فتركت بلدي غارقة في المصائب وجئتكِ لأني لا أستطيع الحياة بدونك، أحببتك فنسيت خرافات الرفاعية وأنفاس الحشيش، نعم؛ كنت مريضاً فشفاني حبك، فقالت:

- لا تكذب يا علي، تعرف المرأة هل يحبها زوجها أم أن قلبه ملك لغيرها؛ هل نسيتها وحدها أم نسيت معها الهدايا والياسمين من أم أمل- ثم ابتسمت بسخرية وأكملت- عندما انتقل قلبك من دعاء إلى نادية؟

- لا أصدق! أنت الفنانة المثقفة تريدين الطلاق لأنني لا أحضر لك الهدايا والورود؟ وبمن تقارنين نفسك؟ ومع ذلك فالأمر بسيط؛ سأملأ حياتك كلها وروداً ورياحين، سأنزل الآن وأحضر لك كل الزهور الإيطالية الجميلة

- كنت أفضل عقد فُل بلدي من مصر، ولكن لم يعد يجدي، طلقني، لن تخدعني بعد الآن بكلامك المعسول، لو أحببتني لما خنتني! فهتفت:

- لم أخُنك؛ كانت مجرد قبلات بلا عاطفة، ومع من؟ إيزابيلا؟ البطيخة؟

- خنتني لأنك بطبعك خائن! ماذا فعلتما بعد أن دخلتَ شقتها؟ لا تنكر فقد رأيتك بعينيّ

- أوهام، لم نفعل شيئاً، سأصنع كوبين من الشاي لأصالحك، أشارت بيأس:

- لا أريد شيئاً، طلقني يا خائن! ثم مالت بجذعها إلى الأمام وبدأت تفرغ ما في جوفها، فقلت:

- دعيني أساعدك، حاولت أن أسند ظهرها فأزاحت يدي بضيق، أردت مداعبة خصلات شعرها النافرة فردتها بعصبية:

- لا أريد منك شيئاً

- سينعشك الشاي ويشعرك بالدفء، دخلتُ المطبخ وتمهلت أتيح لنفسي لحظات من التفكير الهادئ، رفعتُ صوتي بأغنية قديمة لفريد لعلها تلين (في قربك في بعدك أحبك لوحدك) رجعت حاملاً الصينية فلم أجدها، هتفتُ:

- أين أنت يا جميل؟ أحضرت لكِ الشاي كما تحبين؛ بالحليب وبدون سكر، أين ذهبتِ يا سُكّر؟ وجدت باب غرفة النوم مغلقاً فطرقتُ وجاءني ردها الواهن:

- أرجوك، لا تزد الأمور صعوبة

- طيب، الصباح رباح، غداً نتفاهم

من بين المخلوقات فإن الأفاعي كائنات أرضية عتيقة طالما اشتهرت في أعمال السحر الأسود واستنزال اللعنات! وفي تراث الشعوب القديمة تجد أن عيونها قادرة على صعق إنسان بمجرد النظر!

أفكر؛ أكانت على حق؟ تذكرت كلمات الشيخ وفحيح الثعبان: أنت لا تعرف نفسك! جلست مؤرقاً حتى طلوع الفجر، قلت أتوضأ وأصلي ثم بدت الفكرة سخيفة؛ لم أركعها منذ شهور، فما جدوى هذا النفاق الآن؟ أفكر بطريقة أخرى؛ سأدخل وأداعبها برفق وأذكرها بلحظاتنا السعيدة لعل قلبها يرق، فتحتُ الباب ودخلت فوجدتها تقول عبر هاتفها:

- خلاص سأكلمُكَ فيما بعد، تعجبتُ:

- من هذا الذي تكلمينه فجراً؟ فزادت استفزازي:

- لا علاقة لك بمكالماتي، أخرج الآن وبعد ساعتين نذهب إلى القنصلية لننهي إجراءات الطلاق! فقلتُ:

- لن أطلقك ولو انطبقت السماء على الأرض

- عناد وفقط! فقلت بسخرية:

- بل لأنني أحبك، والآن أخبريني، من كان معك على الهاتف؟ فقالت متحديةً:

- عادل، رن الهاتف من جديد فاختطفتُه من يدها وجريت إلى الصالة وهي تصرخ:

- يا مجنون! ماذا تفعل؟ ضغطت زر الرد فجاءني صوته المفعم بالحنان:

- نادية، هل أنتِ بخير؟ ماذا حدث طمئنيني! أغلقتُ الخط وانهرتُ فوق الأريكة؛ كالمجنون أمر بأصابعي على الشاشة التي تخبر بوضوح أنه يهاتفها يومياً وأحياناً عدة مرات! يعصرني الشكّ؛ يتضح كل شيء، يحمل لها كما قال (معزّة خاصة) أي (يحبها) منذ زمن بعيد، ربما لم يستطع الظفر بقلبها قبل زواجنا وربما منعتهما ظروف، ومن يدري ماذا حدث بينهما بعد ذلك! تحضُر الأبالسة؛ هو بالتأكيد من أخبرها بقصة حبي القديم ليوغر صدرها تجاهي، لماذا لم تحمل بجنيني حتى الآن؟ هل تستعمل موانع الحمل؟ يا لها من خائنة! يأتيني وسط مشاغله ليوصيني بها وتكتمل الخدعة، تتحجج بعملها فترفض الإقامة معي في مصر، وصديق عمري كثير السفر إلى أوروبا، خطة محكمة! هذا هو الترتيب المنطقي للأحداث، أدخل غاضباً:

- ومنذ متى تتكلمان من وراء ظهري؟

- ما هذه السخافة؟ طلقني يا علي واحتفظ ببقية احترام لنفسك، تحثني الشياطين:

- تنتهزين فرصة أول خطأ لي لتطلبي الطلاق ويخلو الجو لك مع عشيقك، هتفَت بجنون:

- عشيقي! أنا يا سافل يا حقير؛ تتهمني وتتهم صاحب عمرك؟ وانهمرت دموعها التمساحية:

- طلقني يا عديم الكرامة، يغلي الدم في رأسي فخرجتُ وأغلقت الباب بعنف:

- سنرى من الخائن الحقير!

تأخذني نوبة من البكاء ثم أروح في غيبوبتي التي جاءت في وقتها لتريحني- ولو قليلاً- من براكين الغضب، تهاجمني الكوابيس اللعينة من جديد؛ لا تكف الأفاعي عن مطاردتي، زيونية تقترب؛ تغرس أنيابها في ذراعي فيتحول جِلدي إلى حراشيف مخيفة، أرى نادية تجري وأحاول اللحاق بها ولكن أقدامي تختفي فجأة فأزحف على بطني! تصرخ فأضحك متشفياً، أطاردها وكل همي اللحاق بها؛ تختفي عن أنظاري، ألهث فتدق الأجراس وتوقظني طرقات عنيفة:

- (لا بوليتسيا)!

أجد نفسي وحيداً في غرفة النوم، أين ذهبَت؟ أفتح الباب في قلق فأجد ضابطين بالزي الرسمي للشرطة، أتبين ما يقولان بصعوبة:

- حادث سيارة، نحن آسفون، أصيبت زوجتك ونقلت إلى المستشفى في حالة حرجة!

سيل هادر من الأسئلة الحيرى والمشاعر المتضاربة، مذهولاً ارتديت ملابسي وانطلقت معهم.

الثعبان!

حين وصلت المستشفى كان كل شيء قد انتهى؛ كل نفسٍ ذائقة الموت! يعزيني الأطباء ورجال الشرطة وأنا في ذهول كامل، أتعرف على (الجثمان) إنها هي؛ نادية في الروب الثقيل نفسه ولكن بقع الدماء تغطيه! وجه مرهَق وابتسامة واهنة لكنها مطمئنّة! يأخذونني للتحقيق ويفرغون محتويات الكاميرات؛ لا أفهم أغلب ما يقولون؛ أطلب مترجماً فيؤجلون التحقيق ساعات، بعد قليل يمتلئ القسم برجال السفارة وبزملائها في مركز الفنون، يسألونني كيف حدث ذلك؟ فأرد: لا أعرف، كنت نائماً وأيقظتني طرقات الشرطة بعد أن دقوا الجرس مرّات، قال ضابط التحقيق:

- ما تفسيرك لهروبها المفاجئ في تلك الساعة المبكرة؟

- لا أملك تفسيراً لأي شيء، سأل مجدداً:

- يقول الجيران أنهم سمعوا أصواتاً عالية تشبه الشجار من داخل شقتكم، هل كنت تتعارك معها؟

- خلاف عادي يحدث بين الأزواج

- لن يمر الأمر هكذا، لابد أن نفهم ما جرى، فقلت يائساً:

- لا أعرف، أرجوك أخبرني بظروف الحادث، نظر إليّ متشككاً:

- أسرعت زوجتك من الشقة تصرخ بعصبية شديدة وتنظر خلفها في رعب، عبرت الطريق متعجلة فصدمتها السيارة، أصيبت إصابات بالغة ونقلتها الإسعاف حيث رأيتها، ماذا حدث وجعلها في تلك الحالة؟

- ماذا حدث؟ طلبت الطلاق لشكوك في ذهنها ورفضتُ، ثم تنبهت فجأة:

- ولست أنا من كان يقود السيارة، فابتسم:

- لا أتهمك بقتلها ولكن أريد أن أعرف الحقيقة، هل تجده أمراً طبيعياً أن تفر امرأة من بيت الزوجية في السادسة والنصف صباحاً بروب شتوي في يوليو؟ فقلت:

- كانت تتقيأ وترتعد فارتدت الروب، ولا أملك تفسيراً لفرارها المفاجئ!

بدا غير مقتنع:

- ستستغرق إجراءات المستشفى والطب الشرعي يومين، لا تغادر الشقة فقد نحتاجك من جديد!

غادرت مذهولاً: يا ترى ماذا حدث؟ أعود غائباً عن الدنيا، تأتي إيزابيلا لتعزيتي فأغلق الباب في وجهها، مكالمة جديدة على هاتف نادية، كما توقعت:

- أين أنت يا نادية؟ ماذا حدث؟ برقت في رأسي فكرة مجنونة:

- أهلاً يا عادل، نادية في المستشفى وتريد أن تراك، أرجوك اترك أي شيء وتعال بسرعة إلى روما، انتظر قليلاً قبل أن يقول:

- علي، مستشفى؟ أهي مريضة؟ أرجوك طمئنّي عليها

- اطمئن، هي بخير، صدمتها سيارة ولكنها الآن أفضل جداً! يختنق بالبكاء:

- هل آذيتَها؟ ماذا فعلتَ بها؟

- هل جُنِنت؟ قلت لك صدمتها سيارة وهي الآن في المستشفى، لا تتأخر من فضلك، فهتف:

- أنا السبب، لو أصابها مكروه فلن أسامح نفسي ما حييت

- لا تلُم نفسك، تعال بسرعة

- أول طائرة إن شاء الله، هكذا اعترف الوغد بنفسه، والآن لابد من التفكير الهادئ لأنتقم لشرفي! في اليوم التالي اتصل؛ سيكون في روما عصراً ليقابلني في المستشفى، أفرغوا محتويات الكاميرات ثم استدعوني للتحقيق من جديد، سألني الضابط:

- هل كنت نائماً في الغرفة نفسها؟

- في البداية نمت على الأريكة في الصالة، ولكن عندما أتيتم وجدت نفسي في غرفة النوم

- إذن لا تذكر كيف انتقلتَ من الأريكة إلى فراشك؟

- كثيراً ما أتحرك أثناء النوم

- سأريك شيئاً، أرجوك تمالك أعصابك، أدار الشريط فوجدتني نائماً على أريكة الصالة أهتز بعنف ثم أتدلى إلى الأرض وأزحف على بطني باتجاه غرفة

النوم، دفعتُ الباب الموارب ودخلت، مضت لحظات قبل أن تخرج نادية من الغرفة وفي عينيها فزع مروع، تجري باكية وهي تحكم رباط الروب المتأرجح حول خصرها وتصرخ بلهجة مصرية:

- الحقوني، تفتح باب الشقة في عصبية وتجري إلى الخارج والرعب مرتسم على وجهها المُصفرّ، كنت أبكي فهتفتُ:

- كفى!

- لحظة واحدة، هناك لقطة لابد أن تراها، أحدهم كان يطاردها! نظرت فإذا برأس ثعبان ضخم تبرز من خلف باب غرفة النوم، رأس مثلثة مبططة مخيفة! سألني:

- هل لديك أي فكرة من أين جاء هذا الثعبان؟ فقلت مرتعشاً:

- لا أعرف شيئاً، من أين جاء وأين ذهب وكيف لم أره وكيف لم يهاجمني؟

- عليك أنت أن تقدم التفسير لكل هذه الأسئلة، انهرت باكياً:

- كنت نائماً؛ لا أعرف أي شيء!

- اهدأ، المنطقة التي تعيشون فيها لم يُر فيها ثعبان منذ سنوات، أطرقت عاجزاً فأكمل برفق:

- اهدأ الآن وعد إلى البيت وسنطلبك لاستكمال التحقيق لاحقاً!

انتظرت صديقي القديم في المستشفى، دقائق وجاء ممتقع اللون، حياني بسرعة وقال:

- أين هي؟ اصطحبته إلى ثلاجة الموتى، رأى اللافتة ففهم، أجهش بالبكاء:
- إنّا لله وإنا إليه راجعون، ثم سقط فاقداً للوعي!

أسئلة سخيفة حول علاقتي بإيزابيلا ثم لم يجدوا سبباً لاحتجازي، وكلت محامياً ليتابع التعويض الذي ستمنحه شركة التأمين وإن كان يظن أنهم سيرفضون لأن نادية هي التي عبرت الطريق بسرعة ولم يستطع السائق تفاديها، جنازة مهيبة أعدها زملاؤها في العمل وحضرها كل رجال السفارة، كانت محبوبة من الجميع ومعروفة لدى الجميع ومحترمة من الجميع! نصلي عليها في مسجد روما الكبير، أنهي إجراءات الرحيل لكي نقوم بدفنها في مصر، لا أملك لها الآن إلا الدعاء بالرحمة، ولكنني لن أترك النذل الذي تسبب في كل ذلك، فلولاه لما أصرّت على طلب الطلاق.

أستعيد كل لحظاتنا السعيدة ورحلاتنا الرائعة وثقافتها النادرة وخبرتها الاستثنائية حول الفن والأساطير القديمة فأدعو لها من جديد، أتذكر كلامها الأخير وأقول لنفسي: سامحكِ الله، أوليس التناقض سمة البشر جميعاً في هذا العصر المفتقر إلى اليقين؟ الغريب أن يحتفظ الإنسان بعقله- فضلاً عن مبادئه- في هذا الزمن! ظل لغز الثعبان يطاردني، ماذا فعلتُ لكي تقتل الأفاعي أبي ثم تعود وتطارد زوجتي فتتسبب في قتلها؟ كيف جاء وأين اختفى بعد مطاردته لزوجتي؟ أبكي مودعاً الشقة التي أثثَت كل ركن فيها

بحبها ولمساتها الفنية الرائعة، لم يتركني عادل منذ صلاة الجنازة وحتى وصلنا إلى مصر، وفي نهاية ليلة الدفن الليلاء جاء معي إلى البيت ثم انتحى بي جانباً:

- طبعاً لا تعرف تفسيراً لما حدث

- الحادث؟

- بل الثعبان!

- وهل لديك تفسير؟

- بعد أن ينصرف الجميع سأخبرك بكل شيء!

ها قد جئت بنفسك يا صديق العمر، لن أجد أفضل من هذه الفرصة كي أجهز عليك، بعد خبرتي الصيدلية الطويلة حصلت على سم لا يظهر أثره بعد الوفاة ولا يثير الشكوك! جرعة صغيرة تكفي لقتل فيل! وقال العنكبوت لفريسته الحشرة الحقيرة: أهلاً وسهلاً! ينفض الجمع في ساعة متأخرة وترفض سماح المغادرة:

- لن أتركك الليلة، سأبقى معك ربما تحتاج شيئاً، أجيبها:

- عادل سيبيت معي، فترد:

- هذا أوجب ألا أترككما، قد تحتاجون لشيء وهو بادي الإرهاق، أُقسم عليها فتأبى بعناد، أؤجل خطتي حتى تنام، تغفو بعد أن تصلي الفجر ويعود عادل من المسجد فيقول:

- اهدأ واسمعني

- لحظة واحدة، سأحضر شيئاً لنشربه

- لا أريد شيئاً

- بل ستشرب، لم تذق شيئاٍ منذ الصباح! أحضرت كأسين من العصير ووضعت في كأسه كمية تنهي الأمر بسرعة ولا تُشعره بطعم غريب، ابتسمت في نشوة وأنا أتأمله يتجرع كأسه ثم قلت:

- تفضل، كلي آذان صاغية، فقال بوهن:

- أرجوك انتبه، ما سأقوله لا يمكن تصديقه، لكني متأكد أنه قد حدث بالفعل، ابتسمت في سخرية:

- سأصدقك طبعاً، تفضل

- حين قابلت الشاب السيناوي أخبرني عنك بشيء غريب، تحول وجهه إلى الاصفرار وهو يكمل:

- عندما أنقذك بالكي اعتبرها معجزة، لكنه عاد وسأل كبار قومه فأخبروه أن الطريشة لم تدفع بكمية سم قاتلة إلى جسدك

- لماذا؟ فقال بصوت ضعيف:

- غرزت أسنانها في جلدك ثم كفّت فجأة عن بث السم

- طريشة رحيمة، ثم ماذا؟ فقال وقد سقط ذراعاه بجواره:

- ثم نجوتَ من الموت بمعجزة

- ألن تكف عن اللف والدوران؟ ما هذه الألغاز؟ وما علاقة الثعبان الإيطالي بالطريشة السيناوية؟ فابتسم...

وأسلم روحه إلى بارئها.

◉ ◉ ◉

الفريقان

أتوقف فجأة، ماذا فعلت؟ انتقمتَ لشرفك، ماتت زوجتك في حادث وقتلتَ الخائن الوغد! الآن وقت الراحة إذن، لكن أين هي؟ أتقلب في فراشي كالممسوس، كما خططتُ؛ جاء تقرير مفتش الصحة بسبب الوفاة: سكتة قلبية، يتعجب الجميع من وفاة عادل في أعقاب ابنة عمه، أحاول رسم ملامح الصدق:

- كانت أختاً عزيزة عليه، فقد وعيه عندما علم بوفاتها، كان في غاية الإرهاق، لم يتركني منذ الوفاة لحظة واحدة.

في أحلامي أرى الرفاعية وقد انقسموا فريقين يفصل بينهما سور عال؛ نصفهم يسيرون خلف الرفاعي الصغير، وكوبرا ضخمة تطل عليهم من فوق السور البعيد؛ يقذفونها بحجارة صغيرة لا تصل إليها بأذى بينما تقذفهم بحمم من السموم والنيران تعمي أبصارهم وتحرقهم فيتساقطون! والشطر الآخر يقفون خلف منصور الرفاعي في انتظام صارم؛ يؤذِّن علاء بصوت يشبه نغمات الأذان وبكلمات لا تشبه كلماته! يتراصون صفوفاً كصلاة الجماعة ثم يندمجون في طقوس عجيبة؛ بغير تكبير يلوي منصور لسانه ليتلو نصاً ليس من القرآن؛ يركعون ويسجدون أمام الكوبرا التي تتطلع إليهم من أعلى حين تلتفت نحوهم راضية!

نظرات أمه تقتلني كندمي، وكأنها تعرف ما فعلت! أخفض رأسي ولا أرفع ناظري عن الأرض محاولاً ألا أذهب وأرتمي في أحضانها لأصرخ: أنا الذي قتلته، افعلي بي ما شئت، خذي بثأرك مني! ثم أعود وأبكي في مرارة، لماذا كل هذا الحزن والندم؟ ألم تكن تلك خطتك المُحكمة لتتخلص من الخائن؟

أختنق بالعبرات، تأتي أمه لتحتضنني فتقول وكلانا غارق في دموعه:

- يا حبيبي، أعرف مدى حبك وارتباطك به، كان أخاك ومات في بيتك، لكن عليك بالصبر! أندهش من ثباتها، أجهش ببكاء مرير فتكمل قائلة لمن حولها:

- لم يتحمل أن يفقد زوجته ثم صديقه خلال ثلاثة أيام! أعمار! إنّا لله وإنّا إليه راجعون، سبقا إلى الجنة يا حبيبي! يزيد كلامها عذابي فأنهار فاقداً وعيي وأفيق على هزات رقيقة من عزة:

- حبيبي، أفق يا علي، تأتي سماح حاملةً صينية عليها الفطير والعسل والبيض والقشدة، تبتسم:

- أحضرت لك الإفطار، أشير:

- لن آكل شيئاً، أرجوكم دعوني وحدي

- بالله عليك كُل أي شيء

- إذن فالبيض فقط!

لا يمكن إخفاء الحقيقة عن جميع الناس طوال الوقت! على استحياء تلتمع نظرات الشك في عيونهم، ثم يتحول الحياء إلى جرأة، ثم تسمع همهماتهم اللائمة، يتحولون إلى التلميح:

للمستشفى والمعمل علاقة بما يجري!

كيف عاد الخليجي إلى شبابه وتوردت خدوده؟

لماذا نجد جثث المختفين بجوار المقابر القديمة؟ ثم يتحولون إلى التصريح:

- سل الدكتور عصام عن اختفاء أولادنا، ثم:

- عمك هو السبب ولا شك

همومي فيضان! لا أرد على أحد ولا أدافع عن أحد، يلاحقونني فأنفجر:

- لا أملك إجابة، اذهبوا وانتقموا ممن خطف أولادكم وقتلهم، يسألونني:

- فمن هو؟ فأردُّ محتاراً:

- لا أدري!

أنعزل عن كل شيء ولا أسمع الأخبار إلا من خلال أحاديث سماح وعزة، يأتي عمي ليطمئن- كما قال- على صحتي:

- كيف حالك يا غالي؟ تأخرت عليك لكن لم أرد إزعاجك وقت العزاء ثم مات صديقك، البقاء لله، فضلت أن أتركك تهدأ قليلاً قبل أن نكمل كلامنا

- أي كلام يا حاجّ

- سأعترف لك بكل شيء، ولكن عِدني أن يبقى كلامي سراً بيننا، فضحكت ساخراً:

- تكلم يا عمي، اطمئن فلن أخبر أحداً

- أحكمت زيونية قبضتها حول أبيك، أوقعته في الخطأ ثم أجبرته على زواجها ليتجنب الفضيحة

- توقعت ذلك، أكمل يا عمّاه

- أجبرته على تسليمها ميراثكم من أمكم ثم طلبت منه أن يكتب بيتكم باسمها فرفض

- فقتلَته؟ فقال:

- بل نشبت حبائلها حولي، فقاطعتُه:

- في حياة أبي؟

- أرسلت من أغواني بالخمر والحشيش ثم أوقعت بي! فكررتُ:

- في حياة أبي؟

هز رأسه وهو يبكي بحرقة:

- انتقمَت منه فأفقدته فحولته! تيقن أن الجنين الذي تحمله ليس ولده، اتسعت عيناي دهشةً فأكمل:

- نعم؛ موسى ولدي أنا! أخذني صمت مذهول؛ أحرك رأسي غير مصدق، ثم تفرَّ دمعة فشلتُ في حبسها:

- أنت! شككت في أخلاقها ولكني لم أشك فيك مطلقاً، والآن عرفت السر وراء الشبه الكبير بين أبي وبين موسى! فقال باكياً:

- ثم مات والدك في ظروف غريبة

- بل اتفقتما على قتله ليخلو لكما الجو

- لا يا بني، اعترفتُ لك بكل شيء دون أن تطلب، لم نقتله؛ صدقني

- ربما أنت لم تفعل، أما هي فلا أشك أنها كانت وراء قتله، فقال ودموعه تنساب:

- أعذرك، فعلَت كل الجرائم إلا تلك، كنا معاً وقت وفاته! نظرتُ في عينيه مباشرةً:

- مع زوجة أخيك؟ فقال متحسراً:

- والدليل عندها بالصوت والصورة، أغرتني بالزواج منها لينشأ الولد في رعايتي، ثم صارت تهددني بولدها: إن لم تفعل ما آمرك به قتلته أمام عينيك!

- فصِرتَ شريكها في كل الجرائم؟

- حاولت كف أذاها عنكم بقدر ما استطعت، أقنعتها أن تعيد إليكم الجزء الذي لم تتصرف فيه من كنزكم، صفّقتُ ساخراً:

- عظيم! فقال:

- تعبدُ الذهب، أنا من أوقع بها هزيمتها الوحيدة! تذكرتُ أكاذيبها فقلت:

- ولماذا لم ترجع لنا إرثنا بنفسك؟

- هي من أخذته من أبيك، ماذا ستقولون لو أعدته أنا لكم؟ ثم أظهرت ألاعيبها لتدمر بلدنا

- فقلتَ تساعدُها!

- صدقني؛ تقتل ولدها لو وقف أمام رغباتها

- إلى هذه الدرجة؟

- وأكثر؛ تعمل وفق خطة شيطانية ويساعدها الكبار في المركز والمجلس والعاصمة، يداها طائلتان ونابها أزرق، لا تشبع من نهب الأراضي واكتناز الذهب؛ من لم تستطع شراءه أوقعته في مصيبة ثم تبتزه فيستجيب صاغراً

- أو تقتله؟

- صحيح

- ولكنك مضيتَ بعيداً، نبشتَ القبور وقتلتَ الأطفال وأثريت من وراء الدماء

- أخطأتُ تحت التهديد والإكراه، ولا أنكر أنني تلذذتُ قليلاً؛ لا أحد يكره المال والنفوذ

- وهل دمك أغلى ممن قُتلوا؟

- أشتهي الموت، المهزوم في لعبتنا يخسر كل شيء؛ سُمعته وماله قبل حياته! كانت ستدبر لي فضيحة يكتشف الناس بعدها جريمتي في حق أبيك، ثم تجعلك أنت بنفسك تقتلني! ألاعيبها لا تنتهي!

- بل صنعتم منها أسطورة وصدقتموها! لم تكن لتعيش لولا مساعدتكم!

يذهب البعض بشكاوى تتهم عمي وأبو فهد باختطاف وقتل أولادهم وسرقة أعضائهم فتحتجزهم النيابة بتهمة نشر الإشاعات الكاذبة وتكدير السلم المجتمعي والأمن العام! يفقد الناس ثقتهم في القضاء فينتقمون بأيديهم؛ يقذفون المستشفى والمعمل بالحجارة ويتوجهون إلى قصر عمي فيحرقونه! يهرب مع زيونية إلى قصرها الجديد- بيت الشامية- حيث لا يمكن لأحد أن يصل إليهم؛ يحرسه المُدجَّجون بالسلاح! تتوالى الأحداث بسرعة لم نعهدها في بلدنا الهادئة، يذهب درويش إلى قصر الأفاعي ليفاوضهم في أمر الإفراج عن الرفاعي لعل الأمور تهدأ، يصحبه علاء ليترجم ما يقال بين الفريقين، يحتجز الأفاعي عمدتنا بكل فجور! تنقسم البلد:

- لم يعد عمدتنا، عاجز لم يستطع أن يحمي بلدنا ولا ابنه ولا نفسه من بطش الأفاعي

- اخترناه بإرادتنا ولابد أن يفرجوا عنه احتراماً لأصواتنا ثم ليكن بعد ذلك ما يكون!

- دعوه يلقى جزاءه العادل

- لن نتركه للأفاعي!

يخطب علاء في المسجد بصوته المؤثر:

- كنت هناك بنفسي، ولو قلت ما حدث لكرهتم العمدة درويش! تراجعوا أرجوكم، لا فائدة من العنف، فلنختر عمدة جديداً وينتهي الأمر! يزيد الانقسام:

- قهرتنا الأفاعي مائتي عام

- بل كلامه عين العقل

- كفى، لن نقبل ظلمهم بعد الآن

- بل هم أفضل من الرفاعي ودرويش!

صدرت الأوامر من العاصمة تعلن عن تعيين عمدة جديد؛ بالأمر: كما كنت! زعيم البلطجية الأشرار!

يأتي الشباب ليحاولوا معي من جديد، فأقول:

- لا علاقة لي بكل ما يجري، دعوني وشأني أرجوكم، يُلحّون فأرفض بإصرار، أهمل نظافتي وأترك ثيابي على جسدي بالأسابيع، لا أقرب الماء، رأسي أشعث ولوني أغبر والكوابيس تطاردني دون هوادة: قاتل مجرم، تلح عليّ فكرة أن أذهب وأحكي له كل شيء ولكني لا أجرؤ على مواجهة شيخي الليثي، أهرب إلى البانجو والخمر، ثم النساء!

يئسوا من استجابتي، تجمعوا في الساحة الشرقية الفسيحة التي تطل عليها طاحونة القمح الكبرى وتفصل بين قصور الأفاعي والمصرف شرقاً وحقول القطن غرباً ومسجد القرية الكبير وخلفه مباشرةً بيت شيخي الليثي شمالاً،

أمّا جنوباً فمبنىً مهجور يقال إنه مخزن قديم للخفراء، ينتظمون في صفوف تهتف بسقوط العمدة الجديد وينادون بالقبض على عمي حجازي وشريكه الخليجي الذي هرب إلى بلده: لن نرحل حتى يعود المختطَفون، وتعود الثعابين إلى جحورها وتحمي زراعتنا من الجرذان والقوارض، يرشقون بيوت الثعابين بالحجارة فيقتل حجرٌ طائش أحد الثعابين! نلاحظ حركة غير طبيعية من الأفاعي بكل أنواعها وأحجامها؛ في الطرق والحقول وفي الترعة والمصرف وفوق الأشجار، هجمات هائجة تصيب البيوت والزراعات، ومن ينجو من الأفاعي لا ينجو من الجرذان! يزداد الاختطاف والقتل ببشاعة لكل من عُرف يوماً أنه ينتقد الأفاعي!

علموا أنني رفضت رجاء الشباب بمفاوضتهم فجاءني صديقي القديم؛ مندوب الأفاعي! حياني في رفق ثم قال بفحيحه المرعب:

- قل لهم أن يرحلوا من الساحة وإلا فالانتقام سيكون مروعاً، سآتيك بعد غدٍ لأعرف ردهم، ثم استدار ورحل!

ذهبت إلى الرفاعي الصغير الذي دبّر تجمع الناس في الساحة ونظم تواجدهم المستمر فيها لأسابيع، أبلغته ثم قلت:

- الأفاعي جادة في تهديدكم، وليس لديكم ما تدافعون به عن أنفسكم، فقال ساخراً:

- من يظنون أنفسهم؟ سوف نبقى هنا ولن نرحل حتى يعرف كل واحد قدره ويعود إلى حجمه الطبيعي ويخرج أهلنا من أسرهم وتتوقف عمليات الاختطاف والقتل وسرقات الأعضاء، نظرت حولي فأصابني الهلع:

- أكلمك عن انتقام مروع مُرتقَب وأنتم تملؤون الساحة بالنساء والأطفال!

فابتسم:

- ولن نصرفهم؛ ما ظنك حين يسمع الكبار في المركز والعاصمة أن عمدتهم الجديد وأتباعه من الأفاعي يهددون بإيذاء النساء والأطفال؟ اتصلنا بالصحف لتسجل ما يحدث، ثم همس في أذني: وهناك مفاجأة أخرى ستدمر الأفاعي، علمني أبي لغة الذئاب! اتفقت معهم على حمايتنا، تعجبت من الكلام المجنون ولكني سايرته:

- وكيف تضمن وفاءهم؟

- يكرهون الأفاعي!

رجعت مذهولاً من الرد وإن لم أنشغل به كثيراً؛ لا يسيطر على تفكيري إلا الثعبان الذي طارد زوجتي وكوابيس جريمتي! جاءني مندوب الأفاعي من جديد فأخبرته: لن يرحلوا.

تتهدل ملابسي، صداع، هزال، لا طعام ولا شراب ولا رغبة في الحياة، فقط السجائر والخمر والمخدرات، أذهب إليه لأحذره من الهجوم الوشيك الذي يقترب من داره!

فاجأني بابتسامة اللائم:

- لم فعلت ذلك بنفسك؟ فانهارت قواي:

- قتلتُ الخائن، فقال:

- لم يخنك أحد!

أذهب إلى خالي فأجده مهموماً:

- تركت الحكومة محصول القطن الذي يعاني من قلة الإنتاج أصلاً للعرض والطلب فهبط السعر وأصبحت تكلفة الزراعة أكبر من مكاسبها، فقلت:

- وما أهمية ذلك؟ فأبدى اندهاشاً وقال:

- يريدون أن نستورد القطن بعد أن كان أهم محصول زراعي في مصر وظل سنين طويلة هو المصدر الرئيسي للدخل، وكانت له بورصة خاصة وشهدت مواسم حصاده سعة الخير وكسوة الأولاد وتزويج البنات، أنسيت أني أمشاطي؟ أنتخلى عن زراعة القطن طويل التيلة أجود أنواع القطن في العالم ونحضر أصنافاً أردأ بكثير من أمريكا والصين؟

- أما زلت ترى بلدنا أفضل مكان للحياة؟

- نعم ما زلت عند رأيي، لكنها تحتاج إلى عمل ضخم للتخلص من الفساد والمفسدين.

◉ ◉ ◉

أغسطس

يزيدني كلامه عذاباً، أحاول الخروج من حصاره:

- جئت لأحذرك؛ توشك الأفاعي أن تشن هجوماً على جموع الناس في الساحة، فابتسم:

- وتخشى على هذه الدار؟

- بل أخشى عليك أنت، فقال بصفاء عجيب:

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

- ولكن وجب ألا نلقي بأيدينا إلى التهلكة

- صحيح، ولكن أكنت متأكداً من خيانة صديقك؟

- كانا يتبادلان المكالمات من وراء ظهري، واعترف أنه كان يحمل لها معزّة خاصة

- وهل هذا دليل؟ سجلت الكاميرات خيانتك ولم تسجل ما يشين زوجتك ولا صديقك!

- لم تحاول أن تحمل طفلاً مني، فقال بهدوء:

- وما أدراك أن العيب منها؟ فانتفضتُ:

- ماذا تقصد؟

- قلت لك من قبل: المسخ لا يعقب!

- سامحك الله؛ تعتبرني مسخاً؟

- كاد يخبرك بالحقيقة، لكنك تعجلتَ وأفسدت كل شيء!

- بل انتقمتُ لشرفي؛ كانا يتحدثان عدة مرات كل يوم

- أوصاك بها خيراً فلم تستجب، فقرر أن يطمئن عليها بنفسه لأنه يخشى عليها منك، صرتُ على وشك الانهيار التام، فأدار دفة الحديث:

- أتعرف العنقاء؟ فقلت متعجباً:

- لا أعرف عنها إلا أنها أحد المستحيلات الثلاثة (الغول والعنقاء والخل الوفي) فقال:

- يسمونها كذلك طائر الفينيق؛ تقول الأساطير أنه يعيش ألف عام ثم يموت محترقاً بالنار، ويُبعث من بقايا رماده طائر جديد فتيّ!

- من بقايا الرماد؟ فقال وهو يكاد يبكي:

- لا تظن النار كلها شراً؛ تحرق ولكنها تطهر، وقد يأتي الخير على إثرها، فقلت:

- لا أفهم

- سأوضح لك

- أرجوك

- أتذكر قصة السمك الذي كان يخرج من الماء مشوياً والطيور التي تسقط من السماء مطهيةً كرامةً للقطب الرفاعي؟ فقلت:

- أما زلت تذكر تلك الأوهام؟

- بل ستراها بعينيك، فلا تيأس من رحمة الله، وعليك بالتوبة لعلك تنجو!

نظرت كالمسوس:

- ونِعم التوضيح، زِدت الأمر غموضاً، فقال:

- التوبة! ثم راح سابحاً في أنهار خلوته!

تتناثر الأخبار عن قرب هجوم الأفاعي، ينقسم الناس؛ فريق سعيد موقن بقرب الاقتحام أغلبهم من المتضررين من وجود الجموع في الساحة: عطلوا مصالحنا، يملؤون الدنيا ضجيجاً وازدحاماً، لا بد من رحيلهم! وفريق متفائل ثانٍ يمني نفسه: سيصمدون وسينتصر أهل القرية على الثعابين ولا شك! وفريق ثالث- أنا منهم- مشفق؛ لا يرى لهذا الضجيج فائدة ولكنه يتمنى الخير للمجتمعين!

أترقب ولا أتمنى الانتقام المرعب من الأفاعي ضد أهل القرية، يؤكد لي عبودة أن ما يردده المجتمعون في الساحة أوهام:

- قررتِ الأفاعي أن تهاجمهم في أقرب فرصة

- كنتُ هناك!

- ولماذا ذهبت؟

- ربما فضولاً وربما شفقة على مصيرهم، فتعجب:

- تتعاطف معهم؟

- بالتأكيد!

- البلد ستخرب!

- يريدون الإصلاح!

- أي إصلاح؟ يقول شيخي البرهامي: انتصر للمتغلب بالقوة وإلا فسدت الأرض! فقلت:

- وإن كان يحكم بالباطل؟

- لا ينتصر الحق بغير قوة تحميه

- والمائع بين الحق والباطل نصير للباطل

- إمّا أن تمتلك القوة، أو فلتنجُ بنفسك!

- نصحتهم فلم يستجيبوا

- سيقتلهم العناد، صف لي ماذا وجدت في الساحة؟

- وجدت ساحةً خارج الدنيا التي يتصارع عليها الناس! لا أحقاد هناك ولا ضغائن

- فكيف يمضون الوقت؟

- صلاة وأذكار وقرآن

– الشائعات لا تنقطع عن انعدام الأدب والنظافة، ثم همس: وأموال تتدفق عليهم وطعام فاخر وحالات تحرش واختلاط مشين، تعرف أحوال الصوفية في خيام الموالد!

– بل حب وإيثار؛ تفاؤل عجيب بنصر قريب وثقة في قائدهم الرفاعي الصغير، احترام بالغ وجود بالخير للجميع، لا شتائم ولا شجار، أمان تام للنساء ولو كُنَّ غير ملتزمات، طعامهم خبز وجبن وشرابهم ماء وشاي!

تعجَّب:

– تكاد تذهب لتنضم إليهم! فتحسرتُ:

– أنا أضعفُ من ذلك!

أتجول لأدرس طبيعة المكان استعداداً لمشاهدة ما سيكون في اللحظة الحاسمة، أفضل موقع: الطاحونة؛ تشرف على الساحة وتوفر جدران سطحها وأعمدته حماية جيدة، تكثر الشائعات بقرب الهجوم، أتصل بعبودة فيؤكد النبأ المزعج: بعد ساعات! أطير قبيل الفجر، صعدت إلى السطح وضبطتُ زاوية الرؤية، تحذيرات كثيرة سبقت ذلك الصباح فلم يستجب أحد، قالوا بثقة: تهديدات فارغة، وحتى متى سنظل تحت رحمة الأفاعي وأذنابهم؟ هناك إسعاف ومركز وصحافة (وذئاب الغرب تتأهب لتنقضّ)! يكاد أغسطس ينتصف بحرارته اللافحة، مشهد عجيب أراه من فوق سطح الطاحونة المليء بأعشاش الطيور؛ المفارقة المضحكة المبكية: الفريقان في غاية السعادة؛ الأطفال يلعبون في أمان والشباب ينشدون منددين بالأفاعي ومتفائلين بعودة قريبة للعمدة الحبيس ورفيقه الرفاعي والنساء يجهزن الطعام في فرحة ساذجة، بينما في الجهة المقابلة تجد الأفاعي متأهبة مبتهجة

بقرب الانتقام! بعد الفجر مباشرةً أسمع موجات من أصوات الفحيح المرعبة مع أصوات الكشيش المفزعة، ثم بدأ الرعب الحقيقي...

عشرات ثم مئات الأفاعي، ثم لم يعد الإحصاء ممكناً ولا مجدياً، ينتظمون بانضباط كأنما تلقوا تعليماً محترفاً في مدرسة عسكرية عتيقة؛ يتقدم صفّان بأصوات الفحيح، ثم صفوف متوازية من الكوبرا المتوحشة التي انتصبت بثلث أجسادها الأمامية تصيب العيون برشقات السم ثم تقترب من المصابين الأكفَّاء فتنهشهم وسط صرخات الألم التي تزيد نشوتهم فينطلقون إلى المزيد، ثم صفوف من الأفاعي الضخمة تعصر كل من تجده أمامها وتهدم الخيام فتقع أقمشتها فوق المواقد المشتعلة ليحترق المكان بلهيب أحمر يشعل أعمدة الخشب التي تستند إليها الخيام ويحرق أكوام القمامة والأنسجة البلاستيكية التي تنشر باحتراقها الرائحة الخانقة، ثم كان الهول المفزع حين ضربوا خزان السولار بالطاحونة ومضت الأفاعي تنفث في النيران المشتعلة لتدفع السائل شديد السواد الذي أخذ ينتشر في خطوط متسارعة؛ ألسنة من الوقود الأسود على إثرها ألسنة من اللهب الذي يزيدها سواداً ويتصاعد الدخان فيتفحم كل شيء! يزيد الدخان فتعلو الحرارة ويتحول ضحى الساحة إلى ليل كثيف السواد، يختنق صدري وتنقطع أنفاسي ويصيبني سعال مجنون، ينفجر المبنى المهجور الذي اتضح أنه كان مخزناً للذخائر انفجاراً هائلاً فإذا بحمم من النيران تتطاير في كل اتجاه لتزيد الجحيم لهيباً!

لا مفر فجميع الجهات محاصرة، من الترعة تقفز الأفاعي شديدة السم لتنقض على من يريد الفرار أو يمد دلواً ليحضر بعض الماء في محاولة يائسة لإطفاء الحرائق، حتى الأشجار؛ تمطر عشرات الثعابين فتهاجم بضراوة كل من يحاول الفرار، البعض يحاول استخدام بنادق (الرش) ليهاجم الأفاعي، وهل تجدي مع تلك الجحافل؟ يلجأ البعض إلى المسجد القريب قبل أن تطاله ألسنة النيران، بعد قليل يحترق المسجد ثم ينفجر بمن فيه وما فيه؛ لا حرمة هناك ولا رحمة؛ النساء والأطفال يصرخون فلا مجيب، رأيت بعينيّ خياماً بكاملها وبمن فيها قد احترقوا أحياء وتفحموا فبعضهم كان على هيأته جالساً وبعضهم في وضع الجري وبعضهم يأكل، تضيع محاولات الاتصال بالإسعاف، وحاول البعض إنقاذ الضحايا على دراجات بلا جدوى، هذا طبيب جاء من الوحدة الصحية لينقذ من بقي حياً؛ يحمل مصاباً فيتلقى قذيفة كوبرا مباشرة في عينه؛ يسقط أرضاً فيعاجله ثعبان سام بنهشة صرخ من هولها ويقفز: الحقوني، سأموت، لم يستطع أحد إنقاذه وظل ينتفض كدجاجة مذبوحة حتى قضى نحبه، وهذه أم تحاول إنقاذ ابنها الرضيع فتأتيها لدغات متتالية فتقع أرضاً تنزف، يطمئنها أحدهم في سذاجة: اطمئني ليست سامة، فتنقض عليها طريشة هائجة تصيبها وطفلها بعضتين سريعتين فتلقى ربها خلال دقائق، ألسنة السولار تمتد إلى المصرف وسرعان ما تلاحقها النيران فتتحول المياه إلى جحيم أسود ملتهب! تتقافز

الأسماك والقراميط فتخرج من الماء مشويةً! ثم تأتي حمامة أصاب اللهب جناحها فتحرق عشاً وتنتقل النيران بسرعة إلى بقية الأعشاش فوق سطح الطاحونة، تطير الحمامات والعصافير فزعة فتتساقط محترقة في مشهد مهيب يزيد الحرائق اشتعالاً، يطول العمر ببعضها فتحمل النيران إلى بيوت القرية في كارثة جديدة! وإذا بصرخة مروعة تأتي من الجانب الغربي على حافة الساحة لينتبه الجميع: القطن! تمتد ألسنة اللهب السوداء وتكاد تصل إلى حقول القطن قبل شهر واحد من موعد حصاده، بقية الأحياء- رغم جراحهم البالغة- يركضون من الساحة غرباً وأهل القرية الذين لم يشاركوا في التجمع يهرولون إلى الحقول شرقاً؛ من كل اتجاه يركضون باتجاه حقولهم قبل الكارثة التي ستذهب بآخر ما كان يربطهم بالحياة- أي حياة- لكن الأفاعي المتراصة على حافة الحقول تواجه الجميع- من الجانبين- بسمومها المباشرة في الأعين وبلدغاتها القاتلة في الأجساد فيتساقط المزيد من الضحايا، تمتد النيران بالفعل إلى حقول القطن فيواجهها الضعفاء بالعجز التام، ثم يندلع حريق هائل جديد من قلب أعواد القطن تتلوه انفجارات متتالية مروعة وتختلط روائح الشواء؛ وجبة شهية للأفاعي من لحوم البشر مع الأسماك والطيور! تجذب الرائحة ذئاب التلة الغادرين فينزلون متمهلين لينقضّوا على البقية المثخنة بالجراح! تمتد النيران فوق السولار الأسود من المصرف إلى الترعة في كارثة أكبر تعلن تخريب مصدر الماء العذب الوحيد!

أبكي مذهولاً قبل أن أنظر غرباً فأجد بيوت القرية الثكلى تحترق بأكملها وسط مزيج من أصوات الأفاعي المنتشية بفحيحها وكشيشها ومن البشر صرخات لا تتوقف: أبي، أمي، ابني، بنتي، وذاك يصرخ: بيتي هناك يحترق وتلك تركض: أولادي! الضحايا بالآلاف والمشهد يتجاوز أعتى أفلام الرعب ولا مغيث! أين رجال الأمن، أين الإسعاف؟ أين رجال الإطفاء؟ أين نخوة أولاد البلد؟ أين أهالي القرى المجاورة؟ أين المركز، أين النيابة، أين الصحافة والإعلام؟ لم يُغثنا أحد! تقترب النيران مني، أحاول أن أنجو بنفسي فأزحف بين الأعشاش المحترقة وأتشبث بالأعمدة حتى أهبط إلى الأرض السوداء منهكاً فتستقبلني حية فاغرةً فاها المرعب، تضحك فرحة بنشوة الانتصار فأوقن أنني مقتول لا محالة! ثم تحدث المعجزة.. فتتركني وتمضي!

وانتهى كل شيء مع الغروب: قرية شاحبة مظلمة؛ وجوه أهلها- من بقي منهم حياً- سوداء كالحة، ترعتها نار ملتهبة وأرضها سوداء متفحمة وسماؤها دخان خانق وزراعاتها هشيم محترق، ورائحتها رائحة الموت الذي لم يُبقِ ولم يذر- إلا أنصار الأفاعي!

أحداث رأيتها بأم عيني التي ظلت تبكي شهوراً حتى خطت أخاديد على وجنتيّ، وربو مزعج يلازمني بقية عمري بسعاله الخانق، صراخ مفزع يتبدل

ضحكاً مجنوناً؛ لحظات مؤقتة ثم تظلني الكآبة الدائمة! ويظل السؤال الحائر بلا إجابة؛ لماذا؟

أيمكن أن تكون تلك النيران خيراً كما قال الشيخ الذي لم تُصب داره- للعجب- بأي سوء!؟ هل تعود أمي إلى الحياة من جديد مثل عنقاء الأساطير؟ أتكون النيران سبباً لتطهير بلدنا وميلادها الجديد من بقايا الرماد!

◉ ◉ ◉

الكشف

أفيق من غيبوبتي الأخيرة، أنظر في المرآة الكالحة لأجد نفسي وقد انقسمت إلى نصفين؛ نصف أفعواني تغطي جسده الحراشيف! وآخر بشري يشبه شيخي الليثي! أحاول النطق فتخرج الكلمات مزيجاً عجيباً من الفحيح المرعب بلسان طويل مشقوق، وكلام الرجل النوراني الهادئ بلسانه النقي!

هل ما أراه حقيقي؟ أم أنني ما زلت غارقاً في الكوابيس!

تُقتل أمل فيجدونها ملقاةً عارية وسط أكوام القمامة المتفحمة بجوار المصرف القذر وقد تم التمثيل بجثتها وفقدت أعضاءها الداخلية فلم يرحموها حتى بخياطة جراحية

وسريعاً تأتي الأخبار بمقتل الرفاعي ثم العمدة درويش في سجون الأفاعي ألتقي عبودة، ما زال يبحث عن أخبار الراقصات، أشيح بوجهي حين يخبرني:

- هل علمت؟ حنين خلعت الحجاب وعادت إلى الفن أجرأ مما كانت- ولم يطلِّقها الكفيل!

أتأمل ردود أفعال الناس، يمزقني الإحساس بأننا قد صرنا أعداءً لبعضنا البعض؛

خانوا قضيتنا وتخلوا عنا ونحن نُذبَّح

بل أنتم من خان العهد وتسببتم في خراب البلد

بل حاولنا الإصلاح بقدر ما استطعنا

وما الذي جعلكم تتجمعون وأنتم واثقون من الهلاك؟

فريق يسبّحون بحمد العمدة الجديد وأعوانه؛ عمي وزيونية وأبو فهد ويتحدثون عن رحمتهم بأهل القرية بعد أن أعادوا بناء وترميم المعمل والمستشفى

وفريق يلعن العمدة وأعوانه ويتمنى عودةً- صارت مستحيلة- للعمدة درويش ورفاقه من المحبوسين!

تفرقنا ولم نعد أهل بلد واحد!

والشباب جرحى أو محبوسون يعذَّبون في سجون الأفاعي ومن استطاع الفرار يهاجر إلى غير رجعة!

أعود إلى شيخي هيكلاً عظمياً يغطيني جلد مشوه مليء بالتجاعيد:

- أخبرني بالحقيقة قبل أن أموت، يستقبلني بابتسامته اللائمة:

- تعرف كل شيء، عد إلى أول صفحة في قصتك وستجد الجواب، والزمن مستدير! فصرخت:

- كفاك ألغازاً وتعذيباً

- لا أريد إلا نجاتك، ثم أكمل:

- سأخبرك؛ تذكَّر معي! تيقنَّت السافلة من سخطك على أبيك، جاءت وقبّلتك أثناء غفوتك فنقلت إليك بسحرها الأسود جرعة سم محسوبة؛ تأخذك الغيبوبة فتتحول ثعباناً قاتلاً ثم تعود إلى إنسانيتك بعد قليل، تغير جلدك وقت الحاجة بعيداً عن الناس، تعود لهيئتك البشرية المنقوصة فتنسى ما حدث لكنه يأتيك أثناء نومك في كوابيس مروعة! هتفتُ: زيونية! فأكملَ: اغتصبَت بيت الشامية بعد أن أحسنوا إليها، نهبت الأراضي وسرقت الأموال، لبست القفطان وقامت بدور الشيخ المغربي الذي يقود نبش القبور وسرقة الآثار ويأمر بقتل الأطفال ويستلذ بشرب دمائهم! التفَّت حول أبيك فماتت أمك وفرِّط في كنوزكم، أوقعت عمك في الخطيئة وقادته ليدمر بلده، أغرت الخليجي فجاء بأمواله ليهلك الشباب ويسرق أعضاءهم، اتصلت بحبشي تحثه على الانتقام ممن أذلوا أمه فقطع المياه عنكم! يتصل مصطفى ليخبرني بالهدم الثالث لبيت الأمشاطي، يبكي: يبدو أننا هذه المرة لن نستطيع إعادة البناء!

أتوسل إلى الشيخ ليكمل القصة وما زلت مذهولاً وقد انكشفت الحقائق:

- كما تنبأ جدك في مذكراته؛ نصفك من أمك أمشاطي لكنك لا تحمل اسمه! أصابتك اللعنة! قتلت أباك انتقاماً لنفسك من سخريته وانتقاماً لأمك من غدره بها، تماديت فخُنت أقرب أحبائك؛ مصطفى الذي استأمنك على صيدليته التي جعلك شريكه فيها دون أن تدفع شيئاً، فصرت تبيع الأدوية

المخدرة للمدمنين وتتمتع بالكسب الحرام وسرعان ما أصبحت عبداً لشهواتك على يد إسماعيل القهوجي، تزوجتَ فتاةً تحبك من كل قلبها رغم أنها تتفوق عليك في كل شيء، أحسَّت مبكراً بشيء غير طبيعي يخصك مع الأفاعي فصحبتك إلى المهرجان وطافت بك المتاحف وقصت عليك كثيراً حول أساطيرها، حاولَت أن تغيرك إلى الأفضل وظنت فيك بقية من الخير فقصت عليك أسطورة (قوس قزح) ثم طلبَت منك الطلاق لأنها فقدت الأمل في إصلاحك ورأتك تخونها بعينيها، زاد عنادك ثم قلبتَ الحقيقة فاتَّهمتَها بالخيانة مع صديق عمرك الذي لم يرجُ لك إلا الخير! تسللتَ إلى غرفتها وتحولت إلى صورتك الثعبانية المخيفة وطاردتها حتى تسببت في مصرعها المروع، قتلت صاحبك دون دليل- وهو المخلص الذي أراد نصيحتك برفق ولم يحطمك بإخبارك عن حقيقة تحولك- ولم يبلغ أحداً بالسر الرهيب رغم يقينه أنك أنت من طاردت نادية- فالسيناوي أخبره بأمر الطريشة التي ذاقت دمك فعرفت أنك من إخوانها فتوقفَّت ونجوتَ من الموت والبتر بأعجوبة، ما من خطأ انتقدتَ به غيرك إلا وابتُليت بمثله أو أكبر! وثعبانا الكوبرا عند المقبرة قالا عنك (غريب لكنه قريب) والثعبان الذي فهمت لغته أحبك لأنه عرف أنك قريب له، والأفعى التي واجهتك عندما هربتَ من الطاحونة ابتسمت لك لأنها عرفت أنك من بني جلدتها

أنظر إلى بقايا الجلد الذي تعثرت به، فهمت: الانسلاخ هو ما خلَّف نقاط الدم الصغيرة! وعرفت تفسير كراهيتي لرائحة الشيح ورغبتي في أكل الفئران، صرتُ مسخاً فلم أنجب! ولن أنجب إلا إذا تخلصت من اللعنة وعدت إنساناً خالصاً!

يعود شيخي، أكمل كلماته التي صرت أحفظها عن ظهر قلب لطول صحبته:

- قتل أحدهم مئة نفس ولم يمنعه ذلك من التوبة والقبول! عُد وواجه مخططات زيونية وأعوانها، بالتوبة تتبدل السيئات حسنات، ولن يهزمهم إلا أنت وأمثالك من العصاة التوابين! فارِق صحبة السوء

- أعرف نفسي؛ سأخطئ من جديد، أهنالك أمل؟

- خير الخطائين التوابون، وليس العلم بكثرة المعارف، إنما العلم خشية الله! فلا تقنط من رحمته

أنظرُ من جديد إلى المرآة فأجد الجزء الثعباني ينحسر أمام شيخي، سألته عن طوق نجاةٍ أخير فقال: أنت! ولكن أين هو؟ أبحث عنه فلا أجده، اختفى واختفت داره! أكان موجوداً من الأصل أم كان بعض أوهام نفسي اللوّامة؟ كيف سأمضي وحدي في تلك الطريق الموحشة؟

طلبت من عزة وسماح الحضور، رددت الحق لهما وطلبت المغفرة! أسلّم نفسي وأعترف: قتلت عادل!

يبايع أغلب الرفاعية منصور قطباً جديداً وعلاء نائباً له فيتعهدان بمواصلة التفاوض مع الأفاعي!

مع أسابيع الحبس الأولى تتجمّع الأفاعي حولي موقنين إني فارقتهم ولن أعود، كنت أخشاهم وأنا منهم والآن لم أعد أخشى شيئاً، يتراصون بفحيحهم وكشيشهم، ينفثون سمومهم ومعها ألسنة اللهب؛ فهل تطهرني النار؟ أم تنبعث أمي التي طال انتظاري لعودتها من جديد؟ تنتابني سكينة عجيبة؛ تختفي الغيبوبة وكوابيسها، أعود إلى الفجر وصلاة الجماعة، يتلو الإمام الآية التي أحيت قلبي بعد طول موات (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم)

أهتف من أعماقي وقد تبينت سبيل النجاة:

- يا رب.

◉ ◉ ◉

صدر للكاتب

- كفر الجيوشي
- ألعاب خطرة
- أخي أكرم

◉ ◉ ◉